مالك بن نبي

في مهب المعركة

مترجمة

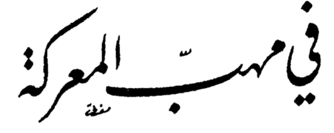




في مهب المعركة

مالك بن نبي

مشكلات الحضارة



إرهاصات الثورة

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٥٥٨
الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

في عام ١٩٧١ م ترك أستاذنا مالك بن نبي - رحمه الله - في المحكمة الشرعية في طرابلس لبنـان ، وصيـة سجلت تحت رقم ٢٧٥ / ٦٧ في ١٦ ربيع الثـاني ١٣٩١ هـ الموافق ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٧١ م ، وقد حملني فيها مسؤوليـة كتبـه المعنويـة والمادية .

وتحملاً مني لهذه الرسالـة ، ووفـاءً لنـدوات سقتنـا على ظمأ صـافي الرؤيـة ، رأيت تسمية ما يصدر تنفيذاً لوصية المؤلف (ندوة مالك بن نبي) .

والتسمية هذه ، دعوة إلى أصدقاء مالك بن نبي وقـارئيـه ، ليواصلوا نهجـاً في دراسة المشكلات ، كان قد بدأه .

وهي مشروع نطرحه بوصفه نواة لعلاقات فكرية ، كان رحمه الله يرغب في توثيقها .

وإنني لأرجو من أصدقاء مـالـك وقـارئيـه ، مسـاعـدتنـا على حفـظ حقوق المـؤلف في كل مـا ينشر بـالعربيـة أو الفرنسيـة مترجمـاً من قبـل المترجمين أو غير مترجم . فقـد حمّلني - رحمـه الله - مسـؤوليـة حفـظ هـذه الحقـوق ، والإذن بنشر كتبه . فإن وجدت طبعات لم تذكر فيه إشـارة إلى إذن صـادر من قبلنـا ، فهـذه طبعات غير مشروعة ، ونرجو إبلاغنا عنها .

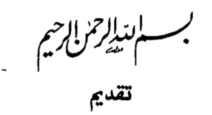
طرابلس لبنان ١٨ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ
١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٩ م

عمر مسقاوي

إهداء

إلى شهداء الثورة الجزائرية الذين حققوا بدمائهم
الأحلام التي تعبر عنها هذه الصفحات

مالك



تقديم

مقالات كتبها الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله في باريس ، في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات .

وقد نشرها آنذاك في صحيفتين جزائريتين ناطقتين بالفرنسية ، هما الشباب المسلم والجمهورية الجزائرية .

وحينما لجأ إلى القاهرة عام ١٩٥٦ بدا له أن يترجم هذه المقالات وينشرها بالعربية . فكانت الطبعة الأولى عام ١٩٦١ م .

وقد سمى مجموعة المقالات هذه (في مهب المعركة) ، باعتبارها إرهاصاً للثورة الجزائرية وتسويغاً لدوافعها .

ففي بعض المقالات تلمس فكر بن نبي وقد أحاط بشخصية الشعب الجزائري بل بشخصية العالم الثالث ، الذي كان وما زال خارج إطار الحضارة الحديثة .

فمنذ منتصف الثلاثينات ، برز المهندس مالك بن نبي يختط للنضال سبل الفعالية ، ويمنح الشباب الجزائري آفاقاً تبدد ضباب الاستعمار ، ويضع لثقافة الجيل أسساً من أصالة التاريخ وقيم العقيدة .

هذه الأصالة تقرؤها في كل مقال كتبه مالك بن نبي في هذه المجموعة ، يواجه بشجاعة نادرة الاستعمار الجاثم على أرض الجزائر .

ولم يكن سبيله إلى تلك المواجهة ، ما تعارف عليه سياسيو ذلك الزمن ، من نفاق سياسي يلعب بعواطف الجماهير ؛ فقد اختط مالك بن نبي طريقاً إلى عمق القضية ، يطرح القواعد الثابتة لتطور التاريخ ، ثم يشرع في بناء الذات الجزائرية على أساس تلك القواعد .

لم يكن يعنيه أن يلعن الإدارة الاستعمارية . لقد اختار الطريق الأصعب والأشق عليه ، حين اهتم بفضح وسائلها تنويراً للرأي وتبصرة للطريق . ولم يكن الطريق إلا تلك الشروط الموضوعية لنهضة فاعلة .

لذلك أصدر في تلك الحقبة بالفرنسية (شروط النهضة الجزائرية) ، ثم من أجل ربط هذه الشروط بالقيم الإسلامية التي رسمت حدود الأصالة الجزائرية ، أصدر بالفرنسية في تلك المرحلة (الظاهرة القرآنية) ، ليضع للشباب الجزائري المتصل بالمنهج الديكارتي ، ضوابط تمسك في نفسه عروة العقيدة .

وإذ هو يدعو إلى بعث جديد للقيم الإسلامية التي كونت تاريخ الجزائر ، نراه يطرح في تلك المرحلة أيضاً كتابه بالفرنسية (Vocation de L'Islam) المترجم إلى العربية بعنوان : (وجهة العالم الإسلامي) .

وقد حاز هذا الكتاب في بداية الخمسينات شهرة واسعة ، ومنح الشباب المسلم في الجزائر وخارجه ، سبل الخروج من ذلك المستنقع الذي وقع فيه العالم الإسلامي ، والذي يطلق عليه مالك بن نبي رحمه الله مجتمع ما بعد الموحدين ، وقد مني هذا المجتمع بمرض اجتماعي سماه (القابلية للاستعمار) .

فمقالات بن نبي (في مهب المعركة) ليست إلا صدى لهذه الكتب ، يتتبع أحداث تلك المرحلة في الإطار السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي ، يحاول من خلالها تسليط الأضواء على المشاكل الحقيقية التي ينبغي للشباب الجزائري أن يتوافر بفعالية لحلها .

وعلى الرغم من عهد مضى في تاريخ الجزائر ، تناولته هذه المقالات ، فإنها لا تزال تحمل في طياتها نبض المشكلة وعمق حلولها .

فالاستقلال السياسي الذي ظفرت به دول العالم الثالث فيما بعد ، ما يزال يطرح مشكلة الاستقلال الاجتماعي والنفسي ، ليواجه الإنسان المتخلف مستقبله ومصيره بعيداً عن تبعية العالم الصناعي المستغِل .

فمقالات بن نبي (في مهب المعركة) ، حاولت في مرحلة التحضير للثورة الجزائرية تصفية المفاهيم الفكرية ، وتعديل المبادرات الوطنية بما يتفق وفعالية الكفاح في مختلف الأصعدة . لقد تناول بن نبي في هذه المقالات كل حدث سجله الصراع مع الاستعمار في الشمال الإفريقي ، وناقش كل كلمة قيلت حول ذلك الصراع ، وراقب كل حركة بدرت في هذا الإطار .

وكان فيما يناقش ويراقب إنما يطرح القواعد الأساسية ، التي حالت معطيات الثقافة الغربية ومصطلحاتها دون الولوج إلى جوهرها .

من هنا تبدو مقالات بن نبي في مرحلة التحضير للثورة الجزائرية ، ذات اتصال بمقالاته التي حررها بعد عشر سنوات ، والتي تحدثت عن مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي ، والتي نشرناها بعد أن ترجمها الأستاذ مالك ووضعها في كتاب سماه (بين الرشاد والتيه) .

ففي كلا المرحلتين ، تبدو المشكلة مرتبطة في حلولها ، بنسق اجتماعي يحقق الشروط النفسية والثقافية لبناء حضارة .

إن هذا الكتاب يطرح للقارئ صورة من تاريخ ما قبل الثورة الجزائرية ، ناضل فيها الأستاذ مالك نضال الأبطال ، وهو يشرح في الوقت نفسه القواعد الأساسية التي طالما تناولها في كتبه .

ولقد راجعنا النص العربي بقدر ما أتاحت لنا المحافظـة على أسلوب الأستـاذ مالك ، وإنا لنرجو أن نكون قد بلغنا الأمانة كما ألقاها إلينا .

جزاه الله عنا كل خير وأسكنه فسيح جنانه .

طرابلس ـ لبنان ٢٠ شعبان ١٣٩٨ هـ
٢٥ تموز (يوليو) ١٩٧٨ م **عمر مسقاوي**

☆ ☆ ☆

مقدّمة

بقلم الأستاذ محمود محمد شاكر

لعلي لا أبالغ إذا قلت : إن هذه المجموعة من مقالات أخي الأستاذ مالك بن نبي ، هي عندي من أنفس ما كتب ، لا لأنها تتناول موضوعاً لا نزال نعيشُه وعاش فيه من قبل آباؤنا ، ولا تزال آثاره باقية فينا ، تعمل عملاً مدمراً في حياتنا كلها ، ولا لأنها تاريخ متصل مغموس في الشرور التي ارتكبها الاستعمار في بلادنا ، ولا لأنها تذكرة لنا ولأبنائنا بما يخشى أن ينسوه من النكبات التي حاقت بهم ؛ كلا ، بل هي أنفس شيء عندي ، لأنها تكشف لنا عن فكر رجل خبير فكر في الأمور ساعة بعد ساعة ، وقيد هذا الفكر في حينه ، فإذا نحن نرى أنفسنا في ضوء ما كُتب قديماً ، كأننا لم نتقدم خطوة في فهم البلاء الذي ينزل بنا ولا يزال ينزل .

وأشد النكبات التي يصاب بها البشر نكبة الغفلة ، لأنها محو لما تقوم به حياة الناس ، والمرء لا يكون إنساناً نامياً إلا مع اليقظة ، فإذا سلب اليقظة فقد استقر في حومة الموت والهلاك ، وإن بقي حياً يتحرك .

وهذه المقالات المتفرقة المعاني المتباعدة الأزمان ، يضمها معنى واحد في زمان واحد ، فالمعنى الذي يضمها هو معنى الاستعمار وهو معنى واحد ، وإن اختلفت وسائل التعبير عنه في نواحي الحياة الإنسانية ؛ والزمن الذي يجمعها هو زمن واحد ، هو زمن الاستعمار ، وإن اختلفت عليه الأيام والليالي والشهور والسنوات . والنتيجة التي يخلص إليها قارئها ، إذا أحسن القراءة وأخذها مأخذ

الجد ، هي أننا عشنا في أكبر مؤامرة على العالم الإسلامي وتوابعه ، ولكننا مع ذلك لا نزال نعيش في هذه المؤامرة كأنها تعني أحداً سوانا ولا تعنينا في شيء ، لأن المؤامرة تتم يوماً بعد يوم ونحن نحيا في آثارها حياة المستمتع بأيامه ولياليه ، وما أيامه ولياليه إلا بنات فلك الاستعمار ، لا بنات فلك الشمس والقمر . وأنا لا أعني بهذا بلاغةً ولا شعراً ، ولكني أحسست ذلك كله وأنا أقرأ هذه المجموعة ساعة بعد ساعة .

فهذا المفكر الخبير ، قد استطاع بحسن إدراكه وبقوة بيانه وبدقة ملاحظته ، أن يفتح عيوننا على الخيوط التي تنسج منها حياتنا تحت ظلام دامس ، قد أطلقه المستعمر ليخفي عنا مكره وخداعه لنا ، فإذا تم نسيج هذه الحياة ، لبسناها كأنها حياة نابعة من سر أنفسنا ، وبذلك يتمكن أن يقودنا كالأنعام ، ونحن نحسب أننا إنما نقود أنفسنا ، وأننا نتصرف في هذه الحياة تصرف الحر الذي لا سلطان لأحد عليه . وهذا هو المعنى الذي يرمي إليه الأستاذ مالك باصطلاحه الذي وضعه وهو (قابلية الاستعمار) .

وليس يخالجني شك أننا لن نظفر بما تتمناه قلوبنا ، ولا بما تتبجح بذكره ألسنتنا ، من حرية أو استقلال أو مجد أو كرامة ، إلا إذا استطعنا أن نفكر في أمورنا تفكيراً صحيحاً ، مؤسساً على أصل من التنبه واليقظة والإدراك . وظهور رجل مثل مالك بن نبي من بين شعب ، لقي من نكبة الاستعمار ما لم يلقه شعب إسلامي آخر باعث على الرجاء والأمل ، فأنا لا أعرف فيمن قرأت لهم أو سمعتهم من الناس ، ولا ممن في أيديهم مقاليد أمور الشعوب العربية والإسلامية رجلاً فيه مثل هذا الحس الدقيق بالنكبة ، أو مثل هذا التنبه الشامل للدسيسة ، أو مثل هذه الاستقامة في فهم الوسائل المعقدة التي يستخدمها الاستعمار ، أو مثل هذه الخبرة بالخسة التي تلبس ثياب النبل والشرف . وإنه ليحزنني أن يكون أمرنا اليوم كما قال الأول « من البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره » .

فعسى أن تكون هذه المجموعة من المقالات دليلاً مرشـداً يفتح بـه الله عيونـاً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، فيومئذٍ تتحقق لنا الأمنية التي لا نعيش إلا بها ، ولا نسعى إلا إليها .

محمود محمد شاكر

☆ ☆ ☆

مقدّمة المؤلف

سبق لي أن نشرت في هذه السلسلة دراسة تحت عنوان (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) .

ولكنني شعرت خلال بعض ملاحظات أبداها إخوان يهتمون بهذه القضايا ، أنه ربما يتبقى - عند من يقرأ تلك الدراسة من دون خبرة سابقة بالموضوع - يتبقى عنده شيء من الإبهام حول الفكرة العامة التي يعرضها الكتاب . إبهام يتطلب رفعه مزيداً من التوضيح ، حتى لا تبقى هذه الفكرة في نظر القارئ مجردة ، لا تحيط بها إلا العموميات ، وإلا الاعتبارات النظرية التي تمس فكرة الصراع هذا .

فالقارئ يريد الدخول في الموضوع عن طريق الظروف الواقعية ، والتفاصيل المادية التي تحيط بفكرة الصراع الفكري ، كما يحيط الوسط الطبيعي بالكائن الحي الذي يتكون فيه ، ويتضمن كل الشروط الضرورية لتكوينه ونموه .

إن فكرة الصراع الفكري تكونت عندي في ظروف معينة وفي نطاق تجربة شخصية ، لم نستطع إلا ذكر بعض تفاصيلها عند الحاجة ، أما وصفها بالتفصيل فذلك نمسك عنه لسببين : لأن هذا الوصف لا يكون مجدياً إلا في كتاب مذكرات ، ولأن بعض التفاصيل لا يتقبلها القارئ ، حين يصورها الاستعمار بوصفها مبالغة مقصودة ، حتى إن الكاتب يخطئ حين ينقلها بقصد الإفادة .

إن أسلوب الصراع الفكري يفرض ألا تقال كل الوقائع التي تتصل به ، ولا تذكر كل الظروف التي تحيط به في لحظة معينة .

فهناك حد وسط يجب التزامه بين الإفراط الـذي يستغلـه الاستعمار على أنـه مبالغة ، والتفريط الذي يستفيد منه أيضاً على أنه سكوت عن بعض الحقائق التي لا بد أن تقال .

فرغبة القارئ الـذي يريـد مزيـداً من التوضيح ، تستحق أن تلبّى في هـذا الحد بالضبط .

فهـذا الكتـاب يهـدف إلى ذلـك ، وقـد جمعنـا فيــه تحت عنـوان (في مهب المعركة) بعض المقالات المترجـة ، التي كتبت فعلاً في ظروف المعركـة الواقعيـة ، بما يحيطها أحياناً من غموض عنـدمـا يريـد الاستعمار أن يسـدل الظلام على بعض المـواقف المشبـوهـة ، التي ليس من مصلحتــه أن تُعرف ، وعلى بعض الأفكار التي لا يريـد أن يرتفـع إلى مستـواهــا الرأي العــام ، وعلى بعض التـوجيهــات حتى لا تصير واقعاً اجتماعياً .

إن المقالات المترجة التي جمعناها في هـذا الكتـاب تتضمن هـذه العنـاصر التي تكون مـادة الصراع الفكري وواقعـه اليومي . الـواقـع الـذي يريـد الاستعمار أن يسدل عليه ستـاراً من الظلام ، حتى يبقى الرأي العـام في قيود لا تراهـا إلا عين بصيرة ، وحتى يبقى الفكر في أغلال مـا يسمى (الواقعيـة) وهي جحود الواقع ، وحتى تبقى السياسة سوقاً تشترى فيه الضمائر وتبـاع ، ويبقى النشـاط الاجتماعي معطلاً بسبب شروط سلبية تفرضها إرادة خفية على حياتنا ، ويجعلها من لـه بها صلة في بلادنا ، مسوّغات فشلنا .

إننا ننشر هذه المقالات لأنها تعبر عن ذلك الواقع المرير الذي يدركه القـارئ من دون تعليق من طرفنا ، مع أننا نأتي أحياناً ببعض التعليق على الهامش عندما نراه ضرورياً .

وننشرها لأنها تتصل بهذا الواقع من نواحٍ مختلفة : من الناحية التاريخية عندما تصف ظروفاً معينة مهدت للثورة الجزائرية مثلاً ، ومن الناحية العلمية عندما تضع جوانب الاستعمار الخفية تحت المجهر ، ومن الناحية الاجتماعية عندما تحاول فك بعض العقد وبعض المركبات ، التي نشأت في نفوسنا من مواجهة بعض المشكلات ، التي لا زالت قائمة في البلاد الإسلامية ، كمشكلة المرأة ومشكلة التراب ، ومن الناحية الثقافية عندما تحاول توسيع الفكر عند شبابنا المثقف ، حتى يكون في موقفه إزاء بعض القضايا المتصلة بمصير الإنسانية وبمصيرنا ، أكثر وعياً وأكثر فعالية .

القاهرة في ١٩٦١/٨/٢٧

مالك بن نبي

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

الاستعمار تحت المجهر

- سيكولوجية الاستعمار
- الاستعمار يفتح وجهة ثالثة في التاريخ
- الفوضى الاستعمارية

سيكولوجية الاستعمار

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/٣/٢٦

لست أريد أن أقدم كتاباً يدرس الاستعمار على طريقة التحليل النفسي ، وخاصة لأن هذا الكتاب ظهر سنة ١٩٤٨ ، وحاز على الشهرة حين ظهوره .

ولست أريد ذلك من ناحية أخرى ، لأنني أعلم خطورة الظروف التي تحيط بالشباب الجزائري ، في اللحظة الحاسمة التي يمر بها وهو يتطلع لـ (الحقيقة الفعالة)[1] أكثر مما يتطلع إلى حقيقة نظرية مجردة ، ربما لا نفي بحقها إن لم يسبق لنا أن باشرنا أفكار فرويد والأساتذة الآخرين الذين أسسوا معه علم النفس .

ولكن بالنسبة إلى هذا الجانب النظري ، فلنقتصر على الإشارة إلى النبذة التي وفق الناشر في وضعها على غلاف الكتاب ، كي يعطينا فكرة عن شخصية صاحبه وعن صلته بعلم النفس ... وهكذا يعطينا فعلاً صورة ملخصة عن شخصية المسيو (منوني) ، وعن اهتمامه بمشكلات علم النفس التي كان يدرسها مع الأستاذ (شارل بلونديل) ، عندما شغل بمدغشقر ، كرسي الدراسات الفلسفية الذي أسسه هناك الأستاذ (هنري بولهان) ، ثم استمر في تكوينه الخاص بمعية الدكتور (لاكان) بباريس .

فها نحن أولاء قد تزودنا بخبرة عن مؤهلات المؤلف ـ إذا صح التعبير ـ لاستخدام علم النفس التحليلي في مثل هذا الموضوع ، وهو يعرف قيمة هذه

(١) كتبت هذه السطور قبل اندلاع الثورة الجزائرية بسبعة أشهر .

الوسيلة العلمية ، ويعرف أنها ليست معصومة ولا مطلقة في اكتشاف الحقيقة ، وهو يعلم زيادة عن هذا أن ميدان علم النفس التحليلي محدود ، يختلف عن ميدان علم الأخلاق وميدان علم الحياة ، أو علم ما قبل التاريخ ... ويستدل على هذا بنكتة طريفة يذكر فيها مغامرة بعثة علمية ، ذهبت إلى إفريقيا الوسطى من أجل دراسة بعض العينات من القردة ، فاكتشفت أو اعتقدت أنها اكتشفت ، حالة نفسية معينة تميز تلك القردة ، بينما يكشف علم النفس التحليلي أن تلك الحالة لا يمكن أن تكون إلا حالة (أنا) متحضر .

وهذه القصة المضحكة تعني أحد شيئين : إما أن الحالات النفسية ليست محددة بالكائنات التي تتصف بها ، وأن علم النفس التحليلي أكبر خطأ حدث في تاريخ العلوم ، وإما أن البعثة العلمية أخطأت في استخدام هذا العلم حتى إنها التقطت صورة نفسية ، اعتقدت أنها صورة القردة المدروسة ، بينما هي صورة الدارسين منعكسة على موضوع دراستهم .

وعندما يذكر (منوني) هذه القصة الطريفة ، فإنه يشعرنا بأن الغرور الذي يسمى (الانحراف المهني) لا يستولي على عقله ، وهذه المناعة من الخطأ الذي يقع فيه من يجمد على المنهج ، تزيد في قيمة الدراسة التي يقدمها إلينا (منوني) ، خاصةً أننا نعد هذه القصة من حيث الموضوع أكثر مما نعدها من حيث المنهج .

إن الواقع الاستعماري يهمنا في حد ذاته ، قبل كل شيء ، فالكتاب يلقي الضوء الكشاف على هذا الواقع ، ولكنه يكشف لنا مجهولات أخرى ، لا تتصل مباشرة بالموضوع ، فتخرج هذه المجهولات من ظلمة جهلنا لتصبح في ضوئه معلومات جديدة ، تثري بصفة عامة دائرة معارفنا ، مثل تلك الفكرة التي يعطيها (منوني) عن التناسب الغريب الموجود بين (وحدة المكان) أو الجانب

الموضوعي و (وحدة الإنسان) أو الجانب الذاتي ، فيفسر المؤلف بذلك النزعة العنصرية ، أي الشيء الأساسي في نفسية الاستعمار ، على أنها أثر لفاصل نفسي يجزئ الذات أو وحدة الـ (أنا) ، عندما يسقط هذا الفاصل الذاتي على سطح الجانب الموضوعي (وحدة النوع البشري) فيجزئه إلى جزأين ، أحدهما له السلطة والسيادة ، والآخر عليه السمع والطاعة ، كما يعتقد من يدين بالعنصرية .

وفكرة هذا الفاصل الذاتي شيء جدير بكل اهتمام في دراسة الواقع الاستعماري بوصفه ظاهرة ، والمؤلف يبين هذا الفاصل في الضمير الأوربي ، ولكن دون أن يحدد نقطة بدايته في التاريخ ، وربما طابقت هذه النقطة اليوم الذي اكتشفت فيه أوربا ، في أعماق نفسها ، ماأطلقت عليه (ابن المستعمرات) أو (الإنسان الملون) .

وبما أنه لم يكن لدينا ، أكثر مما لدى (منوني) من معطيات التاريخ ، ما يكفي لتحديد تاريخ هذا الانفصال في الضمير الأوربي ، فقد كنا في دراسة سابقة[1] قدرنا هذا التاريخ بصورة تقريبية في العهد الروماني ، في العهد الذي كانت فيه الحروب الفينيقية ، بما تتصف به من شدة معاملة ، تعبر عنها تلك الكلمة المأثورة التي كان يرددها (كاتون) في كل مناسبة « لا بد أن تحطم قرطاجة » ، كانت تلك الحروب إرهاصاً للحروب الاستعمارية ، كأنها تنذر بتلك المذبحة التي ستحدث في أمريكا يوم ينزل بأراضيها (بيزار) .

وإذا كان (منوني) يقتصر على اعتبار الأشياء في العهد الاستعماري الحديث ، فإنه على هذا قد قدر العوامل الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ، التي تتصل بالنزعة الاستعمارية اتصالاً تكوينياً ، مع ذلك فهو يعد هذه العوامل كلها « تؤدي مفعولها ، بوصفها أسباباً ، في عقول مهيأة نفسياً » .

---

(١) كتاب (شروط النهضة) فصل العامل الاستعماري .

وهذا الاعتبار يمثل إلى حد ما المدخل المنهجي الذي ندخل به إلى نظرية (منوني) ، حيث ينشأ عنها مفهوم أولي يسميه (موقفاً استعمارياً) .

إن (الموقف الاستعماري) ينشأ في نظر (منوني) كل مرة ينعكس فيها الـ (أنا) الأوربي خارج إطار أوربا ، أي كل مرة يقع فيها اتصال بين (الأوربي) و (الأهلي) .

وإننا لنعرف ، عن طريق علم الأجناس ، معرفة كافية من هو الأول ؛ ولكن من هو الثاني ؟

الجواب هو : أن كل رجل غير أوربي فهو (أهلي) بتعبير اللغة الفرنسية (Indigène) أو بتعبير اللغة الإنجليزية (Native) .

وأما شذوذ اتصالهما ، الذي ينشئ الموقف الاستعماري فإنه صادر عن الفرق ، الذي يلاحظه المؤلف ، بين (حرب استعمارية) ومجرد حرب ، يعبر عنها بالمصطلح العادي .

فنحن ندرك أن الدراسة منذ مقدمتها الأولى ، ستتخذ اتجاهين : أحدهما خاص بدراسة (المستعمِر) والآخر خاص بدراسة (المستعمَر) ، وأن المعطيات النفسية الخاصة بهذين الاتجاهين هي التي تصوغ بالتالي التركيب الذي يطلق عليه منوني (المواقف الاستعمارية) .

ولا شك أننا كنا ننتظر في الكتاب بعض الملامح ، التي تعودنا ، بمقتضى تجربتنا بصفتنا مستعمَرين ، أن نرى فيها ملامح (المستعمِر) ؛ ولكننا نتساءل هل يعترف المستعمَر ، مثل ابن جزيرة مدغشقر الذي كان موضوع دراسة (منوني) على وجه الخصوص ، هل يعترف بتلك الصورة التي يعطيها له (منوني) عندما يسمه بتلك السمة التي يطلق عليها مركب التبعية Complexe de dépendance ؟

ومهما يكن في الأمر فربما كان الشعور بالذات يحس بمعاكسة ، سواء عند (المستعمَر) إن لم يعترف بهذه الوصمة التي يصفه بها (منوني) ، أو عند (المستعمِر) عندما يشعر أن المؤلف كشف بعض ملامحه الخفية ، مثل تلك الوصمة التي يصف بها الأوربي في المستعمرات ، على أنه لا يطلب فقط الفائدة المادية ولكنه يرغب أيضاً في بعض الملذات النفسية الخطيرة .

فكل من عنده فكرة مسبقة عن بعض المذابح التي سجلها التاريخ في رصيد الاستعمار منذ سنة ١٩٤٥ ، ويعرف ما كان فيها من تفنن سادي في الوحشية ، يدرك إلى أي نوع من (الملذات) يشير المؤلف بهذه الكلمة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصديق الباريسي الذي عرفني بـ (منوني) ، أراد أن يلفت نظري بصورة ما ، إلى وجه تشابه بين ما يسم به المؤلف شخصية الملغاش أي ابن المستعمرات بصفة عامة عندما يصفها بـ (مركب التبعية) ، وبين الحالة الخاصة التي تكون عليها الشعوب المستعمَرة ، وقد أشرت إليها في بعض دراساتي بمصطلح (قابلية الاستعمار) .

ولكنني لا أرى وجه التشابه الذي يشير إليه صديقي على أنه ذو مدى بعيد ، هذا إذا أخذنا في حسابنا العناصر الخاصة بكلتا النظريتين ، ولسنا نتساءل هنا : هل سلوك التبعية الذي اتخذه المؤلف موضوع الدراسة على البيئة الملغاشية ، هو خاص بهذه البيئة ، أم إنه يتعدى حدودها ويكون قاسماً مشتركاً لكل البلاد المستعمرة ، بالصورة التي يعتقدها صاحب الكتاب ؟ إنني لا أتصور في الشمال الإفريقي مريضاً يقول للطبيب الذي عالجه وشفاه : « أنت الآن أوروبيني » ، أي أن يجعل بينه وبين رجل آخر صلة الملكية ، التي تعبر عن (سلوك تابع) وعن (موقف استعماري) ينشئه تلقائياً سلوك فرد ملغاشي إزاء طبيب أوربي عالجه .

وربما لا يكفي هذا مقياساً نميز به بين التبعية بمصطلح (منوني) وبين (القابلية للاستعمار) بالمصطلح الذي استخدمته ، وهو ليس موضوع حديثنا بخصوص هذا التمييز إلا بصفة عابرة ومن أجل رفع الشبهة ، لذا نقتصر على القول الذي يوضحه ماسيأتي : إن الفرق بين الحالتين اللتين يعبر عنهما كلا المصطلحين ، هو أننا من ناحية في مواجهة مركب مجتمع (المجتمع التابع) يكون قد بلغ حالة الركود ، وانتهى إلى التوازن الجامد بتطور نفساني طبيعي أو فطري ، بينما نكون من ناحية أخرى أمام وضع مجتمع قد وصل إلى حالة الركود إثر نكسة اجتماعية ، أي إننا في الحالة الأولى أمام مجتمع متماسك متجانس ، تكون الصلات العمودية فيه (الأسرة) أداة تماسك قويّ للمجموعة كلها ، وفي الحالة الثانية أمام مجتمع متفكك منقسم إلى ذرات ، تكون الصلات الأفقية فيه (المجتمع) تلك التي من شأنها أن تربط المجموعة ـ شعباً أم أمة ـ قد تحللت نهائياً .

ويمكن أن نضيف إلى هذا المقياس الاجتماعي عنصراً نفسياً ، يزيد في توضيح الفرق الذي نشير إليه : فالمجتمع الذي يعنيه (منوني) ينشئ مع الاستعمار صلة نفسية اجتماعية ، بينما ينشئ المجتمع الذي نعنيه صلة اجتماعية نفسية ، أي إن الأولوية في الحالة الأولى للعنصر النفساني ، بينما الأولوية للعنصر الاجتماعي في الحالة الثانية .

ومهما يكن من أمر فإن مركب التبعية في نظر المؤلف يكون عند (الأهلي) شيئاً نظيراً أو مقابلاً للنزعة الاستعمارية عند الأوربي .

وهذان العنصران يكونان بطبيعة الحال موضوع فحص مدقق ، إذ أنهما يكونان الهيكل النظري الذي بنيت عليه الدراسة التي نتحدث في شأنها ، وندخل فيها هكذا بهذه التمهيدات مع ما يضيف إليها (منوني) من توضيحات ضرورية ، كالفرق بين الشخصية وهي ماتعطيه الوراثة الاجتماعية وإنتاج الحضارة ، وبين

(الفرد) وهو ثمرة كمية سلالية معينة . وهكذا يتبين أن الشيء الذي يطبع سلوك الفرد ليس لونه ، أي الكمية السلالية ، ولكن ثقافة البيئة التي ينشأ فيها .

وعليه فالبحث يتجه في هذا الاتجاه ، فالمؤلف يدرس من ناحية التطور الذي أدى إلى ظهور النزعة الاستعمارية في أوربا ، ومن ناحية أخرى التطور الذي أدى إلى ظهور مركب التبعية بمدغشقر على سبيل المثال .

وفي كلتا الحالتين يرجع المؤلف - طبقاً لمنهج علم النفس التحليلي - إلى مرحلة الطفولة .

فهو يرى أن (التبعية) تنشأ من شعور الطفل بعجزه ، ذلك الشعور الذي يتكون وينمو عند الطفل الملغاشي بقدر ما يشاهد من قوة وحول عند والديه ، وعند والده على وجه الخصوص ، فيشعر أمامها بمركب نقص ، يحاول التخلص منه بتحويره إلى (مركب تبعية) : المركب الذي ينزع من الطفل الفكرة والرغبة في تكوين إرادة وسلطة شخصيتين ، حيث لا يرى فيها جدوى ، بل يراهما مستحيلتين .

وعليه لا يبقى للطفل الملغاشي ، في نظر المؤلف إلا أن يتقبل هذا الوضع على أنه شيء طبيعي ، ويرى في سلطة والديه الجبارة شيئاً ضرورياً لراحته ، بل (المرجع الأعلى) عند الحاجة ، أي أن الطفل (الأهلي) سيضع تلك السلطة في المكان الذي تضع فيه أوربا مبدأ دينياً ؛ ويلاحظ المؤلف في هذا السياق أن (فرار الأوربي) من (سلطة واقعية) باسم (سلطة معنوية) ، هو الشيء الذي يكون العنصر الأول للتمييز بين الحالتين ، إذ أن هذا (الفرار) هو ما طبع الحضارة الغربية وحدد حركتها التطورية .

وعلى كل ، فإن الطفل - أينما كان - يخشى حالة (الضياع) Abandon ويعمل في الحقل العائلي كي لا يقع في ضياع ما .

فالقانون العام ، هو أن (التبعية العائلية) تنشئ المشكلة السيكولوجية نفسها في كل مكان ، والمأساة نفسها التي تواجه الصبيان ، ولكن الحل لهذه المشكلة وهذه المأساة هو الذي يختلف من مكان إلى آخر : فالطفل الأوربي ، حسب رأي المؤلف ، يصفي مركب التبعية العائلية بكبته أو بتبخيره (أي يحوله إلى حالة أخرى) فيتقبل مواجهة (حالة الضياع) ، ويتمثل الـ (أنا) عنده مركب النقص الذي ينشأ عن هذه الحالة ، بينما يتقبل الطفل الأهلي (حالة التبعية) كي يتخلص من مركب النقص ومن الشعور بـ (الضياع) .

وهكذا تنشأ ـ وفق رأي المؤلف ـ شخصيتان ، ترتبط الأولى بـ (علاقة عمودية) : (حماية الأجداد المهينة) ، والأخرى تواجه (عقدة الضياع) وتتغلب عليها لأنها تتقبل أخطار (اللاتبعية) .

وهذه الاعتبارات كلها تكون ، في نظر المؤلف ، المقدمة النفسية لما يسميه (الموقف الاستعماري) الذي يتحقق كلما تدخل الأوربي بصورة واقعية في دائرة (الحياة الأهلية) ، وقد نتصور أن هذا (التدخل) يحدث غالباً خلال حرب استعمارية تكون نتيجتها الأولى تبديد أو تعكير شبكة الصلات التقليدية ، التي تربط (الأهلي) بالوسط الذي يعيش فيه ، كاشفة له فجأة عدم جدواها ، أمام صلات جديدة يفرضها المستعمر في صورة (حماية) على البلاد المحتلة ، ويتقبلها ابن البلاد بوصفها تعويضاً عن الصلات التقليدية التي كانت ترتبط بها راحته الشخصية ، وفي هذا الوضع الجديد تمتزج ، كما يرى المؤلف ، صورة (الإنسان الأبيض) عند (الإنسان الأهلي) « بالأغوار النفسية البعيدة عن الشعور ، حيث تمتزج بصورة الجد الطوطمي » .

وإذا كان هذا الامتزاج واقعياً ، كما يعتقد المؤلف ، فإننا نتصور أثره في الحياة الاجتماعية والفردية ، ولكن الوثائق التي يستند لها في هذه القضية ليست

كلها مسلمات لا تحتمل المناقشة ، وبالأخص الوثيقة التي تناولها من الأدب الشعبي ، كتلك المقطوعة التي يقول فيها الشاعر الملغاشي :

كيف فتح أهل أوربا البلاد ؟!
إن هؤلاء الرجال المدهشين أتوا من وراء البحار بسرعة !
والبلاد التي فتحوها أصبحت آمنة .
لم يبق فيها قطاع طرق ولا عبيد لأنهم حرروا .
إن أصحاب العيون الزرقاء أولو حول وقوة .

إن هذه العينة من الأدب الشعبي الملغاشي لا تقنعنا ، لأننا غير واثقين من أنه التعبير الحقيقي عن الفكر الشعبي بمدغشقر ، ولأننا نعرف عينات من هذا الأدب في الجزائر ، ونعرف أنها لا تعبر عن الروح الشعبي الجزائري ، بل نشعر أنها ملفقة تحت إشراف إدارة الشؤون الأهلية ، ونعرف أن الأدب المأجور لا يخص بلاداً دون أخرى ، ولا عصراً دون عصر .

ومما يؤيد وجهة نظرنا ، هو أن المؤلف نفسه ، يعترف بملاحظة على الهامش تنطق (بالتقديرات السياسية المغامرة) التي يعتمد عليها الاستعمار ، فهو أحياناً يدعم ويسوغ وجوده في المستعمرات بمثل هذه الشهادات .

ومهما يكن الأمر ، فإن رسم (الشخصية التابعة) بما تستلزم من السمات ، يرسم ، على صورة ما ، الجانب (الأهلي) فقط في الكتاب الذي يكتمل ، بطبيعة الحال ، بجانب (أوربي) ملازم للنزعة أو (الرسالة) الاستعمارية .

فهذه الرسالة تغور جذورها في أعماق الشخصية الأوربية كما يراها (منوني) ، فتجعلها مطابقة لشخصية ديكارت ، بل هو صانعها ، لأنه يمثل في نظره الإنسان الذي تخلص من (رعاية الأمومة) وتقبل شعور (الضياع) بصفته

شعوراً باستقلاله ، شعوراً بانتصاره على (خشية الضياع) مبرهناً بذلك على ثمن أي تحرر وطريق له يغنم به الفرد .

إن المؤلف يرى في ديكارت الرجل الذي حقق أسطورة (بوتي بوسيه Peti Pouset)[1] ، واخترع وسيلة الاهتداء إلى الطريق في (غابة الشك) ، كما يرى في المنهج الديكارتي المغامرة التي أتاحت للأوربي أن يهتدي إلى (تقديس الوسائل) ، محولاً ثقته من عالم الطاقات الخفية إلى عالم الطاقات الظاهرة Technique .

إننا ندرك هنا التقدير الذي يخص به المؤلف منهج ديكارت بوصفه طريقة تحرر ، ولكن يصعب علينا في الوقت نفسه إدراك السبب الذي جعل المؤلف ، بصفته عضواً في لجنة تحضير لبرنامج توجيه مدرسي Pédagogique بمدغشقر ، يفضل في هذا البرنامج ترجمة بلزاك على ترجمة ديكارت ، كأنه لا يعتقد أن تفكير ديكارت سيقوم في المجتمع الملغاشي بالدور التحرري الذي قام به في المجتمع الغربي ، أو كأنه يعبر هنا عن موقفه نحو تلك الطريقة التي يشير إليها هو نفسه عند الغربي ، ويسميها « رد فعل لا شعوري أمام الرجل الملون » وهو على حد قوله : « رد فعل لا تحدد طبيعته بوضوح » .

ولكن المهم في الأمر ، هو أن (منوني) يصور لنا شخصية الأوربي التصوير الذي ندرك معه مباشرة الصلة الدقيقة الموجودة بين الفرد الذي تخلص من (رعاية الأم) والذي فارق الوطن الأم : الفرد الذي يغادر وطنه ويشق البحار من أجل أن (يستعمر) بلداً بعيداً .

ولكن هذه (الرسالة الاستعمارية) تطابق - في نظر المؤلف - حالة نفسية غريبة يحللها بكل دقة في شخص روبنسون كروزويه R. Crusoé ، وفي شخص

---

(١) هي قصة قزم يشق طريقه في غابة كثيفة محاطاً بالأخطار ومنتقلاً من مغامرة إلى أخرى .

آخر : (بروسبيرو Prospers) في إحـــدى قصص شكسبير (العـــاصفـــة la tempéte) ، فيكشف في شخصيتها نزعة يعدها أساسيـة في تحـديـد الشخصيـة الاستعمارية ويسميها (الرغبـة في عـالم خـال من البشر) ، وفي هـذا السيـاق نراه يكتشف أيضـاً نزعـة ابن المستعمرات أي مركب التبعيـة في شخص (كليبـان) ، رفيق (بروسبيرو) الذي يعيش معه في موقف استعماري حقيقي .

ولكن عندما نشر (دنييل دوفو يه Daniel Defae)[1] حلمه الـذي أودعـه في قصته المشهورة ، وجدت أوربا نفسهـا أنهـا تحلم الحلم نفسـه ، أو بعبـارة أخرى أن الرغبة في عالم خال من البشر (صفـة نفسيـة أوربيـة شـاملـة تسم الروح الغربيـة بصورة عامة) ؛ والمؤلف يرى في هذه السمة بما تشتمل عليه من نزعة ضـد البشر ، الشيء الذي يحدد الرسالة الاستعمارية في جذورها النفسية .

وكأنـه في هـذا كلـه يفسر معطيـات النفس بخـاصيـات المكان ، أو الاستعمار بوصفه ظاهرة تتصل بجغرافية أوربا التي تحدد نظرتها إلى العالم البعيد .

ولكننـا نـلاحـظ بـدورنـا أن سحر البعـد على العقـول لا يخص أرضـاً دون أخرى ، ولا عصراً دون آخر ، بينما لا نجد هذا التـأثير الغريب على الاستعـدادات النفسية كما أثر عليها في أوربا حتى بعث فيها الروح الاستعماري ، ونلاحـظ بوجـه خاص أن سحر (العالم البدائي) لم يعمل عمله لأول مرة في أوربـا ، بل نجـد أنـه أثر على مكتشفين كبـار في عصور أخرى ، ووجـه أصحـاب رحلات كبيرة ، مثل ابن بطوطة والمسعودي وأبي الفداء فجابوا العالم المتوحش الخاص بزمنهم ، دون أن تستولي على عقولهم نزعة استعمارية بل كانوا يجوبون البلاد لمجرد المعرفـة والفـائـدة العلمية .

وإنه لمن خطأ الأبصار أن نتكلم كما تكلم (كلود بورديه) ، في مقالة خصصها

(١) صاحب قصة Robinson Crusoé

لمظاهرة تطوان[1] عن شيء يسميه هذا الصحافي (الاستعمار العربي بإسبانيا) ، وقد بينا في مقالة سابقة أن للاستعمار وجهة ثالثة[2] يدين بها تاريخ الإنسانية لأوربا .

كما أن أسطورة الجزيرة التي تشتمل على سحر البعد وعلى فكرة عالم غير مسكون ، ليست خاصة بالأدب الأوربي ، بل نجد أثرها في الأدب العربي في قصة السندباد البحري وفي قصة حي بن يقظان ، دون أن نجد فيه أثر النزعة الاستعمارية .

ولكننا نتساءل إذا كانت أسطورة الجزيرة الخالية تعبر حقيقة في الغرب عن الرغبة في عالم دون بشر .

إننا نعرف بعض مظاهر الفكر الاستعماري بالجزائر معرفة نجد معها أنفسنا ملتزمين بشيء من التحفظ أمام هذا السؤال .

إننا نعرف على وجه المثال حقد الأوربي الذي يعيش الواقع الاستعماري في بلد مستعمَر ، على أخيه الذي يأتي مباشرة من الوطن الأم ، فالحقد يكون واضحاً إزاء لجنة التنقيب التي تعين في حالة اضطرارية للتنقيب عن بعض المظالم ، كما شاهدنا ذلك هذه الأيام بمناسبة اللجنة التي ذهبت لدراسة الموقف بمراكش الآن ... كما نتذكر أيضاً كيف قوبل بقسنطينة من طرف الجالية الأوربية القاطنة بالمدينة ، رجل دين كبير هو الكردينال (ليينار) .

حتى إننا بعدما نتأمل هذه المظاهر كلها ، نتساءل عن مقدار الإصابة والتوفيق في رأي (منوني) إزاء النزعة الاستعمارية ، التي يسميها الرغبة في (عالم دون بشر) . أليس من الأصح أن نسميها الرغبة في عالم بلا شهود ؟ لأن كل من

---

(١) المظاهرة التي قام بها الشعب المراكشي بمنطقة الشمال أيام العدوان الغاشم على شخص جلالة الملك محمد الخامس .

(٢) مقالة نشرت في الموضوع ونترجمها بعد هذه المقالة .

ينطوي على مركب الجريمة يحتاط من الشهود ويحقد عليهم ، فالأوربي القاطن بالمستعمرات يحتاط أحياناً من أخيه الذي يأتي زائراً من الوطن ، لأنه يخشى منه أن يكون شاهداً على جريمته في سلوكه الاستعماري مع أهل البلد . فالجزيرة البعيدة تكون إذن بالنسبة إليه بمثابة المكان الذي يجد فيه مأمنه ، المكان الذي لا تدركه فيه سلطة القوانين والأخلاق والعادات .

ومهما يكن من الأمر فتحليل (منوني) يكشف لنا عقدة مرضية في الرسالة الاستعمارية ، ولكنه لا يقف فيما يبدو عند الاحتمال الذي تكون فيه ، كما نشعر بذلك أحياناً ، هذه العقدة عاملاً لا حضارياً أو فاسخاً للحضارة ، كما يلاحظ ذلك (أميه سيبرز) في محاضرة ألقاها أخيراً عن المشكلة الاستعمارية .

وهذا العمل الفاسخ للحضارة واضح في ظروف معينة ، لأن كل مناسبة تتخذ فيها (فكرة الأوربي القاطن بالمستعمرات) الصدارة على فكرة الأوربي الساكن بالوطن الأم ، تكون هذه مناسبة ينتصر فيها الظلم على القانون ، والامتياز على الحق ، والكسل على العمل ، والمادة على الروح . أي أنها مناسبة تنتصر فيها النزعات غير الحضارية على القيم الحضارية ، وفيها حركة تنعكس فتصبح سيراً إلى الوراء ، وعالم ينقلب فيرفع قدميه ويمشي على رأسه .

وعندما ننظر إلى الأشياء هذه النظرة ، يعترينا شيء من الدهشة ، حينما نرى المؤلف يشاطر أكثر من مرة الرأي الاستعماري ، الذي يرى أن (المستعمر) أجدر من الأوربي الذي لم يخرج من بلاده في تفهم القضايا القائمة بين الشعوب المستعمَرة والدول الاستعمارية ، وأنه أجدر بتحديد سياسة هذه الدول فيما وراء البحار ، كأن القضية قضية اختصاص في جريمة ، على مذهب المسيو (كاونه) الذي يعتقد فيما يخص تونس ، أن المشكلة القائمة هناك ليست بين الشعب التونسي المكافح وفرنسا ، ولكن بين هذا الشعب والفئة الاستعمارية التي بيدها

السلطة الحقيقية بتونس ، وأن العقدة ليس حلها بباريس ولكن بتونس ، أي في مأمن من القانون ومن (الشهود) .

فهذه الملاحظات تدل على جانب ضعف وعلى وصمات سوداء في كتاب مشرق بالنور في نواحيه الأخرى ، ولكن ربما وقع المؤلف بما كان يحذر منه ، فقد أراد أن يتجنب التورطات السياسية في كتاب يستولي عليه روح العلم ، إلا أن صاحبه تورط في بعض التعليقات وبعض الاستنتاجات المستعجلة .

ولقد نجد أنفسنا حائرين ونحن نقرأ الكتاب في هذه النقط السوداء : هل نربطها منطقياً بمسلمات الكتاب ؟ أم ننسبها إلى ميل في نفس صاحبه إلى الإسهام في بعض الآراء الاستعمارية ؟ .

فعندما نرى الكاتب ، بعد إدانته (النزعة الأبوية) في نفسية الاستعمار أي النزعة التي تجعل المستعمِر يطالب بحق الرقابة على المستعمَر ، بدعوى أنه لم يبلغ رشده ، نراه بعد ذلك يستخدم استعارة يستعيرها مما كتب الدكتور (أندري برج) عن (الإنسان العصري) ، تراه يطبقها على الملغاشي ويحكم عليه بأنه « لم يدرك بعد سن اليتم » ، أي السن الذي يكون فيه الفرد قد تخلص من سلطة الوالدين ، وهو يشير طبعاً لسلطة الحماية الاستعمارية .

فعندما نقرأ استعارة كهذه في الكتاب ، لا نعرف هل نربطها بمقدماته المنطقية ، أم ننسبها إلى ورطة يقع فيها صاحبها دون شعور . وهكذا نجد نفوسنا حائرين أمام هذا الحكم (العلمي) الذي لا يصيب الحركة الوطنية في مدغشقر فقط ، بل يصيب الحركات الوطنية التحررية كلها ، وكفاح الشعوب المستعمرة من أجل حريتها ، خصوصاً أن المؤلف يقرر بصفة عامة وجود (نفسية أهلية) ، كما كان (ليفي بروهل) يقرر العقلية البدائية .

بل إن الكاتب يذهب أكثر من ذلك في اتجاه الفكر الاستعماري عندما يصور (النخبة البدائية) كما صورها (ليفي بروهل) ، ويضع على لسان من يمثلها ، في

نظره ، أي على لسان التلميذ الملون الذي يقول للأستاذ الأوربي : إنك علمتني الكلام كي تتيح لي أن ألعنك به !!.

وعبارة كهذه تشبه إلى حد كبير ما يقوله المستعمرون عن (الأهالي) الذين تتاح لهم فرصة التعلم في الكليات الأوربية ، « إننا نعطي لهؤلاء عصينا كي يجلدونا بها » .

ولكن على الرغم من هذه العبارات ، نجد أن النخبة الملونة تتكلم غالب الأحيان في الكتاب لغة (كلبيان) ، (الرجل المقيد بمركب التبعية) ، وتطالب في النهاية بالطوق وبالعقال : رمزي (التبعية) .

ولكن على تقدير أن هذه العناصر التحليلية تدخل حقيقة فيما يسميه الكاتب (الموقف الاستعماري) ، فهل يوحي الكتاب بطريقة حل وبوسائل حل لمعالجة هذا الموقف ؟ .

وقد يتساءل فعلاً الكاتب نفسه في نهاية الدراسة : ماذا نفعل ؟ ويرد على نفسه بجواب يستقيه من فكرة بداغوجية لفرويد ، فيقول : « ومهما نفعل ، فإننا لا نصيب في الموضوع » .

ولكن الموقف يخلق ضرورة مواجهته بصورة ما ، مهما يكن فيها من الغموض ، ولا شك أن تلك الصورة ستنتج من الاتجاهين اللذين اتجه إليهما التحليل في الكتاب .

ففي اتجاه ابن المستعمرات ، يقترح الكاتب تحرير شخصيته من دوافع التبعية ، وبعث الروح الديمقراطي في المجتمع الذي يتصف بالتبعية .

فيعرض الكاتب من أجل ذلك عدداً من التوجيهات يراها مناسبة لهذا الغرض المزدوج .

ولكن هذه التوجيهات تبقى كلها ، في نظر الكاتب ، رهينة وسائل

وإمكانيـات تقع تحت تصرف الاستعمار ، « لأن المجتمـع الاستعماري لا يترك للكائن المستعمَر إلا تبعيته » .

ومن ناحية أخرى ، فابن المستعمرات نفسه لا يبدو ، في نظر الكاتب ، مهتماً بإنجاز تطوره بصورة فعالة ، لأنه يراه في الحقل السياسي مثلاً ، لاتتجه مطـالبـه إلى تصفية (التبعية) .

وهكذا تنتهي الدراسة في دائرة مفرغة تلتقي فيها في نظر الكاتب ، نزعـات الأوربي الاستعماري (المطرود من عـالم الآخرين) ، ونـزعــات ابن المستعمرات الـذي لم يقم بثورتـه الفكريـة ، ولم يحول ثقتـه من الطـاقـات الخفيـة كي يعلقهـا بوسائل العلم والصناعة .

ولكن أليس الحل خـارج هـذه الـدائرة المفرغـة ؟ في التطـور الـذي يـدفـع الحضارة اليوم إلى الشمول والعالمية ، أي إلى حالـة سيضطر فيهـا الأوربي إلى تقبل واحترام (عالم الآخرين) حيث تتجدد فيه فكرته عن الإنسان .



الاستعمار يفتح وجهة ثالثة في التاريخ

الجمهورية الجزائرية في ١٣ و ٢٠ / ١١ / ١٩٥٣

عندما ينزل جيش أجنبي بأرض شعب ، فإن هذا الشعب يكون معرضاً ليرى إما احتلالاً مؤقتاً في بلاده ، وإما عملية ضم تضعه نهائياً تحت سلطة شعب آخر .

وكلا هذين الاحتمالين له خصائصه بالنسبة للشعب الذي يتعرض لهما :

فأما الاحتلال المؤقت فإنه لا يؤثر في حياته إلا بصفة عابرة ، على أنه مجرد حدث يخضعه مؤقتاً لحاجات جيش أجنبي ، يفرض متطلباته من حيث الأمن والتموين في البلد المحتل ، وذلك طبقاً لشروط يهيمن عليها قانون عسكري ينتهي نفوذه مع تصفية الوضع الحربي .

وأما في حالة الضم فإن الأشياء تتخذ اتجاهاً آخر يؤثر في حياة الشعب الذي جرت عليه عملية الضم من الداخل ، حتى إنه يغير أحياناً مصيره في التاريخ تغييراً جذرياً ، وعندما يقع مثل هذا التغيير ، فهو يظهر في صورة مجتمع جديد ، تكون فيه البناءات الداخلية نتيجة اندماج خصائص الشعبين العنصرية ، مصهورة في بوتقة أسرة جديدة . وهذا الاندماج قد يكون أحياناً مطبوعاً بخصائص أحد الشعبين أكثر من خصائص الشعب الآخر ، وليس حتماً أن تكون خصائص الشعب الغالبة هي ذاتها خصائص الشعب المنتصر ، فالصين على وجه المثال لم تتخذ طابع الشعوب التي احتلت أرضها عبر التاريخ ، كالمغول والمندشو ، بل هي التي وضعت طابع حضارتها العريقة على تلك الشعوب .

وغالباً ما يكون الاندماج مشتملاً على خصائص الطرفين ، اشتمالاً يكون معه أثر كليهما واضحاً فيه ، كما وقع في تكوين المجتمع (السلتي - الروماني) الذي اندمجت فيه خصائص العبقرية السلتية والعبقرية الرومانية على حد سواء ، بعد واقعة (أليزيا) ، اندماجاً موفقاً على الرغم من الفوارق الجوهرية بين ما يتصف به كلا الطرفين ، من مزاج الشمال ومن مزاج البحر الأبيض المتوسط .

ولكن مهما تكن النسبة التي تعزى إلى كلا الطرفين في هذا التركيب من الناحية الأخلاقية ، فإن النسبة الاجتماعية بينهما تكون دائماً على حد التساوي : فالغالب والمغلوب يتمتعان في النهاية بالحقوق نفسها .

بل إن فكرة هذا الازدواج نفسها تنمحي في النهاية ، امحاء يسود معه المجتمع الجديد شعور وحدته لا شعور ازدواجه ، ولا ينشأ هذا الاتزان الاجتماعي من تصريحات خطابية فيها ما فيها من الرياء ، بل ينشأ من صميم الواقع ، من التعديلات الطبيعية التي يأتي بها التاريخ في صلات بين شعبين تعارفا في ميدان القتال ، ولكنهما التحما في ميدان الحياة ، التحاماً اضطرتهم معه مشكلاتها إلى جمع وسائلهم وحاجاتهم ومكاسبهم وخسارتهم .

ومن هذه الاعتبارات العامة ، نتصور ما قد يكون الموقف في الجزائر غداة نزول الجيش الفرنسي برأس سيدي فرج : فالجزائر كانت معرضة للاحتمالين اللذين وصفناهما لولا الاستعمار ، فبعد قرن من يوم الاحتلال تبين أن الجيش الفرنسي لم ينزل بأرضنا لاحتلال مؤقت ولا لمجرد (الضم) بالمعنى التقليدي للكلمتين ، لأن الاستعمار أدخل في التاريخ وجهة ثالثة ، هي الاستعمار ذاته .

إن نزول الجيش الأجنبي برأس سيدي فرج سنة ١٨٣٠ ، أعلن حالة الحرب التي دشنت (الحضور الفرنسي) بالجزائر ، ولكن عبارة (فرنسي - عربي) التي صاغها هذا العهد ، لم تعبر عن الواقع التاريخي الذي نجده تحت عبارة

(سلتي - روماني) كما تقدم ، فما هي إلا تلفيق خطابي لفقه الاستعمار ، كي يخفي به حقيقة مجتمع جديد ليس بالعربي ولا بالفرنسي .

وحقيقة هذا التلفيق تظهر عندما نعد الأشياء بالنسبة إلى نقطة بداية مناسبة .

فلو اتخذنا سنة ١٨٣٠ نقطة بداية لتاريخ التطور الاجتماعي بفرنسا والجزائر ، لرأينا أن التطور لم يسر في البلدين في اتجاه واحد .

إننا نلاحظ أولاً في بداية هذا التطور ، أي عندما لم يكن النمو العلمي والصناعي قد أثر في الحياة الاجتماعية ولم يحدد بعد صورتها الجديدة ، هنا نجد مستوى المعيشة للشعبين متساوياً . وربما وجدنا الشعب الجزائري يتمتع بيسر مادي أكثر من الشعب الفرنسي ، فقد كان الإنتاج الزراعي متوافراً نسبياً في الجزائر أكثر من فرنسا ، كما تدل على ذلك الصفقات التي عقدتها الحكومة الفرنسية في عهد (الإدارة directoire) مع شركة تصدير جزائرية يديرها يهوديان ، وكان الإنتاج العقلي أوفر بفرنسا فقد كان الشعب الجزائري يتمتع بكل ما ينتج تراب خصب ، والشعب الفرنسي يتمتع بكل ما تنتجه حضارة في قمة انطلاقها .

ولكن سرعان ما وضع الاستعمار يده على كل الثمرات التي ينتجها التراب الجزائري ، والتي كانت تتيح العيش الرغد للشعب الجزائري كافة ، لأن تعاليم الإسلام لا تترك عنده مجالاً لفكرة (الطبقات) ولظاهرتها ، مع ما يتبعها من نتائج متناقضة ، تلك المناقضات التي شوهت المجتمع الغربي الذي كان ولا يزال أحياناً ، يجمع بين الرفاهية المفرطة والبؤس ، بين الإنتاج الزائد عن الحاجات والنقص الفظيع في الغذاء .

والاستعمار يحاول طبعاً تفسير كل الثمرات التي تنتجها الأرض الجزائرية ،

على أنها ثمار جهده وعبقريته ، فهو في هذا ينطبق عليه معنى المثل الشعبي ، حين حاول « تغطية الشمس بغربال » .

ومهما يكن فقد كان في استطاعة الشعب الجزائري سنة ١٨٣٠ ، على الأقل أن يقتفي خطوات الشعب الفرنسي ، عبر قرن البخار والكهرباء .

بينما نرى في نهاية الأمر ، أن الشعب الفرنسي يصل وحده إلى عتبة العهد الذري ، ونجد الشعب الجزائري في قافلة المتخلفين ، بعيداً عن جبهة التطور العالمي ، لم يخرج بعد من مرحلة الأمية .

وعندما نعبر عن هذا الواقع بلغة النسبية ، فإننا نقول إن قرناً من (حياة مشتركة) لم يخفض من التخلف بين الشعبين بل زاد فيه ، وفي هذه اللغة نتصور الأشياء خلال القرن الذي مضى كأن الشعب الفرنسي انطلق إلى الأمام ، بينما الشعب الجزائري رجع إلى الوراء .

وهذا التخلف بين الشعبين يبدو بطبيعة الحال في الحالة الثقافية في البلدين ، ويمكن توضيح هذه الحالة ببعض الأرقام التقريبية إذ ليس لدينا الإحصائيات الأخيرة المتصلة بالموضوع .

فلنذكر أن عدد الطلبة الجامعيين يبلغ تقريباً ٣٠٠,٠٠٠ طالب بفرنسا ، بينما لا يبلغ عددهم في الجزائر ٣٠٠ على وجه التقريب ، وإذا كان لهذا الرقم معنى من حيث الكم فإن الواقع يكشف وراءه حقيقة الأمر من حيث الكيف .

وعلى سبيل المثال ، فإنني أشك في أن العرض الذي نشرته جريدة (الجمهورية الجزائرية) في عددها الأخير[1] ، قد يجد صدى لدى بحار جزائري واحد ، لأن الاستعمار وضع كل النشاط البحري تحت تصرفه ، تطبيقاً لما يسمى

(١) العرض يطلب بحارة جزائريين اختصاصيين للعمل في بحرية إندونيسيا التجارية .

قانون (احتكار الراية) ، وهذا الاحتكار قتل في حينه النشاط البحري الجزائري الذي لا ينكر على الرغم من إنكار الاستعمار لـه ، كي يسوّغ بـذلـك نظريـة (الاستعمار المحضر) ، فقد كان صيتـه معروفـاً في الأوطـان ، حتى إن الاستعمار نفسه يدعي أنه إنما أتى لوضع حد لما يسميه (القرصنة الجزائرية) .

وربما استطـاع من يريـد التسليـة والترفيـه العقلي أن يجمـع هكـذا أقـوال الاستعمار المتضاربة كي يبطلها الواحد بالآخر .

ومهما يكن في الحقيقة من شأن (القرصنة الجزائريـة) ، فـالشيء الواضح أن الجزائريين وجدوا أنفسهم مطرودين من الملاحة بقانون (احتكار الراية) ، وسار الأمر على هذا المنوال في كل الاتجاهات الأخرى ، أي في جميع ميادين النشاط التي تتطلب تدريباً مهنياً ومعرفة فنية .

وهذا الوضع يظهر على وجه الخصوص في صورة أي مدرسة مهنية في مدينـة من مـدن الجـزائر اليـوم ، فـإن المـدرسـة تضم عـدداً من الأقسـام ينـاسب عـدد الصناعات الموجودة غالباً في الوطن ، ولكن الطالب الجزائري يوجه فيها إلى قسم صناعة الخشب على وجه الخصوص ، أي إلى صناعة غير مربحة لأن السوق مكتـظ بمن يشتغل فيها ، بينما يوجه الطالب الأوربي إلى الصناعـات الميكانيكيـة التي لهـا رواج ومستقبل .

وهـذا التوجيـه ليس من محض الصـدف ، بل من أثر التوجيـه العـام للتعليم (الأهلي) ، لأن هذا التعليم ليس موجهاً في مبـدئـه لتكوين أطر من الفنيين في الوطن ، أو إنشاء قيادة صناعية فيه ، هو لا يستهدف خلق نخبـة مثقفـة ، وإنمـا تكوين نواة من بورجوازيين صغار يحملون الشهادات ، وبالإضافة إلى هـذا فـإن الثقافة (الأهلية) مقدرة تقديراً لا تخرج معه من حدود معينة ، وإذا ما أبديت رغبة أو ظهر استعداد في اتجاه خـدمـة الآخرين ، في صورة عمل خيري أو نشـاط

سياسي ، أو في صورة اهتمام علمي ، فإن الصاعقة تنزل على (المجرم) الـذي يبـد
هذه الرغبة ، والجحيم يحيط به من كل جانب .

وإذا ما أبدى (المثقف) أي اهتمام بـالهنـدسـة أو بـالآلـة المتحركـة فـإن ة
الإدانة لا يقل عن ذلك .

فمنذ سنتين نشرت صحيفة (التايمس) مقالة رئيسيـة عن الموقف في تونس
مشيـدة بـالعـلاقـات الحسنـة بين الفرنسيين والتـونسيين ، فـأشـارت إلى أن هـ
العلاقات قد نجحت « لأن التونسيين المثقفين يتصفون بالميل إلى الأدب أكثر من
إلى التكنيك .. » .

إن الانجليز مشهورون بالمزاح ، فلعل الصحيفة اللندنية كانت تمزح .

ولكن عنـدمـا يتنـاول هـذا البرهـان ولي عـام سـابق ، ويظهر لنـا كما فعا
أخيراً ، تعجبـه من العـدد القليـل للطـلاب المسلمين المنتسبين إلى كليـة العلـو
بالجزائر ، وعددهم لا يزيد فعلاً على أصابع اليد ، فـإننـا نشعر بثقل هـذا المزاح
فلدينا سوابق تذكرنا كيف يفتك بعائلتنا ، حين حاولنـا بـالقـدر الصغير المكر
الخروج من حدود (الثقافة الأهليـة) والقيـام بجهود مـا في سبيل تحضير أنفسنـ
بأنفسنا .

ولا يمكن أن نصور هـذه الحـالـة الـدرامية بطريقـة أحسن من الإشـارة إلى
جانبها المضحك ، فهناك قصة طريفة ترددها الألسنة في مدينة تبسة ، فقـد دعي
جزائري كان يطلب وظيفة في الإدارة الخـاصـة بـالشؤون الأهليـة ، للمثول أمـام
الحاكم الفرنسي كي يختبره ، وبعد أن خرج من مكتبه سجل الحاكم هذه الملاحظـة ،
« فكر خطير : إنه يعرف الحساب إلى العشرة » .

ومهما يكن في الأمر ، فثمرة (الثقافة الأهلية) شاخصة اليوم في حالـة البلـد
الثقـافيـة ، التي تـدل دلالـة واضحـة على أن الخرق قـد اتسع ، وأن تخلف أولئـك

المساكين « الذين يحسنون الحساب إلى العشرة » بالنسبة إلى التطور العام في القرن العشرين قد تفاقم .

وأعراض هذا التفاقم ليست واضحة في المستوى الفكري ـ مستوى النخبة المثقفة ـ فحسب ، بل هي واضحة أيضاً في المستوى الاجتماعي : مستوى الجماهير الكادحة بل الجماهير العاطلة ..

وفي هذا المستوى نجد أسباب التفاقم قد تضاعفت ، حين أضيف التعطيل الضخم الذي فرضه الاستعمار على حياة الشعب المستعمر ، إلى أسباب داخلية ناتجة عن الجمود الكبير الذي كبل تلك الجماهير بمرض القابلية للاستعمار .

ففي سنة ١٨٣٠ كان الشعب الجزائري يعيش منذ زمن بعيد في حالة شبه نباتية ، لقد كان يعيش من أجل المحافظة على كيانه فقط دون تطور ولا تقدم ، بل كان يفقد مفهوم التقدم ذاته ـ ذلك المفهوم الذي يعد من ثمار الفلسفة التي تبعت عهد (دروين) ، قد كان يفقده لأسباب عامة سنذكرها في دراسة أخرى ربما تنشر قريباً[١] .

ولكن الاستعمار أتى وأضاف ، في ظروف مناسبة جداً إلى هذه العوامل الداخلية ووطأتها الشديدة ، ظروفاً تسارعت فيها عوامل التعجيل ، وقد بدأت عملها في تطوير الشعوب المعاصرة منذ سنة ١٨٣٠ تقريباً ، حين أخذت تظهر فيه النتائج الاجتماعية للحركة العلمية العصرية وللتصنيع .

فالشعب الجزائري حرم من النتائج هذه كلها ، لأن رفع مستوى المعيشة في أوربا ، ورفع المستوى الثقافي ، مع النتائج التي حققتها الحركة النقابية ، مع تحديد حقوق العامل ؛ كل هذه الأشياء تحققت بعد نزول الاحتلال برأس سيدي فرج ، أي بعد حدث يعد رئيسياً سواء بالنسبة للشعب الجزائري ، أم بالنسبة

---

(١) ذكرت هذه الأسباب في كتاب (وجهة العالم الإسلامي) .

للشعب الفرنسي ، الذي سيجد نفسه مندفعاً في تيار التعجيل بالوسائل العلمية والصناعية التي أشرنا إليها ، ومن بينها الوسائل التي حصل عليها باحتلال الجزائر ، في الوقت الذي سيجد الشعب الجزائري نفسه محروماً من تلك الوسائل وبسببها محروماً من وسائل العلم والصناعة .

فمن هذه الناحية ، يمكننا فعلاً أن نعد الوضع الاستعماري في البلد عملية حجر على موارده كلها لحساب المستعمِر وحده : عملية حجر في صورة شركة مساهمة يحمل أسهمها الأوربيون فقط ويديرونها لمصلحتهم فقط ؛ فكان لهذا الانفراد الأوربي بالمصلحة الجزائرية ، أن يؤدي بطبيعة الحال إلى وضع يحمل نزعة ضد (أهالي) البلد ، كما تؤدي إليه في أقصى نتائجها تلك اللائحة التي وجهها الملك شارل العاشر إلى الحكومات الأوربية قبيل الاحتلال وبقيت في تقاليد الـ (كي دورسيه : وزارة الخارجية الفرنسية) ، في تحديده السياسة الإسلامية للحكومة الفرنسية في عهودها الثلاثة : الملكية والإمبراطورية والجمهورية .

ولكن يبدو أن العهد الجمهوري كان منذ سنة ١٨٧٥ أوفى هذه العهود لذلك التقليد ، حتى رأينا سنة ١٩٥١ وزيراً فرنسياً ، هو المسيو مايير يواجه الانتخابات البرلمانية تحت شعار (وحدة الأوربيين) و (وفاء المسلمين) .

وهكذا نرى كيف هذا (الاكسلانس) الجمهوري يعرف الفرق بين الكع والبع ويلح عليه .

وعليه ، فإنه لم يبق للشعب الجزائري إلا أن يتبع تطوره الخاص ، بدون وسائل تقريباً ، على هامش (وحدة أوربية) تدير شؤون بلاده بمفردها .

وما التخلف الذي نشاهده اليوم في تطور الشعب الجزائري إلا نتيجة هذه الإدارة منذ سنة ١٨٣٠ ، بعد أن نأخذ في الحساب الأسباب التي تعود إلى القابلية للاستعمار .

الفوضى الاستعمارية

الشباب المسلم في ١٩٥٤/٢/٢٦

كيما يسوّغ الاستعمار استبداده في العالم لابد من تعقيم ثلاثة أرباع الأمة لتصبح غير قادرة على الخلق والإدراك ، وهذا التعقيم ليس العملية الوحيدة من نوعها التي ندين بها للاستعمار ، بل ندين له بشيء آخر : لقد عقم أيضاً المفاهيم القانونية والقيم الأخلاقية التي قامت عليها ، بوصفها قواعد عامة ، علاقات الشعوب والأفراد .

ومن بين هذه المفاهيم والقيم ، تلك القاعدة التي تسير عليها الأحوال الشخصية في كل مجتمع ، حين ينصب العرف أو السلطة الشرعية من يقوم بمصالح القاصر حتى يبلغ رشده ، شريطة ألا يسرف في تلك المصالح ، إذ عليه أن يتصرف بما يفيد القاصر رعايةً لمصالحه وتمريناً له على تدبر شؤونه بنفسه .

وليس مفهوم (الحماية) في العرف الدولي الخاص في عهد الاستعمار ، إلا امتداداً لمفهوم (الحضانة) في العرف الشخصي ، مهما يكن في هذا الامتداد من تعسف نحو حقوق الشعوب المستعمرة .

ولعله من الممكن أن يُحدث الانتقال من نطاق القانون الشخصي إلى نطاق القانون الدولي ، تغييراً ما في صورة المفهوم الذي يجري عليه مفعول هذا الانتقال ، ولكن الذي هو غير طبيعي أن يصبح هذا التغيير قلباً لمفهوم الوصاية على القاصر في القانون الشخصي ، حتى ينعكس معناه في إطار المفهوم الدولي .

إن لـدينـا في مفهـوم (حضـانـة) مقيـاسـاً طبيعيـاً نقيس بـه من الـوجهـة الأخلاقية والقانونية ، مفهوم (حماية) .

وإننـا محقون في الرجوع إلى هـذا الأصـل الفقهي ، ولا سيا أننـا لا نرى من يلجأ إلى الاعتزاز بالقانون واحترام المعـاهـدات كالاستعمار ، يخفي بجملـه الرنـانـة شراستـه الملتهمـة ، ولا نرى مثلـه من يعتز بـالأخـلاق ليخفي بشعـاراتـه نفـاقـاً مرضياً .

على أن الشيء الذي تعارف عليـه النـاس ، هو أنـه إذا حـدث في تصرف من تُسند إليه حضانة قاصر ، أي أمر يخل بمصلحة هـذا القـاصر ، فـإن المجتمع يتـدخل بـاسم العـادات كي ينهي فضيحـة لا يحتملهـا العرف وكي يلغي حضـانـة لا تفي بشروطها .

وهـذا التـدخل يصبح حـاسماً إذا كان الخلل لا يعني فقـط الإسراف في أموال القـاصر لحسـاب مصـالح شخصيـة أخرى ، بل يستهـدف إبقـاء القـاصر في حـالـة قصور ، بوسائل غير شريفة ، بتزييف إدراكه وفكره ، وبتلويث طبيعته .

ففي الحالات هذه جميعها تصبح الحضانة منافية للأخلاق ، ويلغى تلقـائيـاً عقدها ، طبقاً للتقاليد التي تعتز بها الإنسانية .

ولكن مهـارة الاستعمار في إخفـاء أو إنكار الواقع لا يفـوقهـا شيء ، كما تـدل على ذلـك وقـائع مشهورة كاختطـاف الملكـة (رنـافـالو) ، ملكـة مـدغشقر[1] ، وكقصـة ملكـة أخرى حكمت كوريـا قبل الاحتلال اليـابـاني ، أو كما تـدل أعمـال لصوصية أخرى يفسرها الاستعمار على أنها عقود ومعاهدات كميثـاق (الجزيراس) الـذي قرر مصير مراكش وفتح هـذه البلاد لـلاستعمار ، أو عقـد (قصر البـاردو) الذي وضع تونس تحت الحماية الفرنسية .

(١) الملكة التي اختطفها الجنرال (غـالبيني) كي يسوغ بوجودها بين يـديـه وبسكوتها الحتم قبول الحماية الفرنسية على الجزيرة الكبيرة .

كما أنه لمن المهارة أن يضفي الاستعمار على عمليات استغلال وقرصنة ألقاباً رنانة مثل (رسالة تحضير) .

ولكن الاستعمار لا يقتصر على هذه المهارة بل يتعداها إلى النكران السافر للواقع الملموس ، فالمستعمرون لا يقتنعون بمجرد الإسراف في ثروات الشعوب التي تضعها حظوظ سيئة تحت (حضانتهم) ، إنهم لا يقتصرون على أن يكونوا مسرفين في أموال (القُصَّرْ) ليذهبوا يوماً - وفي بطونهم حقوق مهضومة وفي وجوههم شيء من الخجل - حين تحل بهم لعنة الخلق وإدانة العدالة ، ويخزيهم الناس بما ارتكبوا من اختلاس ومن إسراف . فالاستعماريون ليسوا بسطاء ليقفوا هذا الموقف ، لذا تراهم بعد اختلاس مصالح (القاصر) الذي وضعه سوء حظه تحت (حمايتهم) ، يختلسون ذاته فيقررون أنه (قاصر) إلى الأبد ، وبذلك يفقد مفهوم (الحضانة) نفسه معناه الشرعي والأخلاقي ويمسخ في مصطلح (حماية) .

ومن الوقائع التي تدل على هذا المسخ الذي يعقم مفهوماً من المفاهيم ويسلبه كل محتواه الأخلاقي وكل مضمونه الإنساني ، نقتطف واقعة صغيرة نوهت بها الصحافة منذ سنتين ، عندما قدرت السلطات الأمريكية القائمة ببناء القواعد العسكرية بمراكش ، أن تكون أجور العمال المراكشيين الذين تستخدمهم ، هي نفسها الأجور التي قدرتها للعمال الآخرين من الأجانب ...

حسناً فهذا أمر قد يسعد (سلطات الحماية) في مراكش ، لأنه يحقق لرعاياهم ، أو (القُصَّرْ) الذين وضعهم الحظ في حضانتهم ، ما يستحقون وما يرغبون من أجور .

حسناً !... ولكن سرعان ما تقدم المقيم العام الفرنسي بالرباط للسلطات الأمريكية لا بالشكر على حسن المعاملة للرعايا الموضوعين تحت رعايته ، ولكن تقدم بالاحتجاج ، محتجاً بأن الأجور قدرت للعمال المراكشيين فوق ما يستحقون !...

فها نحن أولاء إذن في تلك الحالة الشاذة ، التي تتيح لنا موازنة مفيدة على قاعدة القانون الذاتي ، الحالة التي يقوم فيها من وضع (قاصر) تحت رعايته ، بإجراءات خصوصية كي يسلب هذا القاصر حتى من ثمن عرقه ، ومن ثمرة عمله ...

فهل من حاجة إلى القول إن مفهوم (الحضانة) قد مسخ البتة في مثل هذه الحالة ، وإننا نجد أنفسنا فيها أمام وضع مثير بما يحتوي عليه من شذوذ ؟

هذا الوضع هو الصورة الحقيقية لموقف الاستعمار إزاء مصالح الشعوب المستعمرة المعنوية والمادية .

وعندما نعبر عنه بمصالح القانون الذاتي ـ كما فعلنا هنا ـ ندرك أنه موقف لا يتلاءم مع أي مفهوم شرعي .

والواقع أن الاستعمار يذهب إلى أبعد من ذلك في الشذوذ . فهو لا يستهدف تحطيم (القاصر) مادياً فقط ، بتطبيق ما يتطلب هذا التحطيم من اختلاسات حقوق ، وسلب أملاك ، وفرض مخالفات مشتركة ، وضرائب من كل نوع ، ومن تنمية البطالة في البلاد تنمية لا يتصورها العقل ؛ إن هدفه أبعد من ذلك ، فهو يريد تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان المستعمَر إلى التقدم والحضارة ، ببرنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التحطيم المعنوي ، من تلويث أخلاقي يحط أولاً من قيمة الفرد الشخصية ، ومن كفاءته ، ومن جهده في المسابقة الاجتماعية ، لأن هذه المسابقة تجري جرياناً تكون معه المحسوبية هي الشرط الوحيد للنجاح فيها ، كما أن الشرط الوحيد للنجاح في الانتخابات في البلاد المستعمرة هو رضاء الإدارة الاستعمارية على الذي يفوز فعلاً ويلقب (النائب الحر) ؛ كما تصبح من ناحية أخرى المخدرات والكحول مؤسسة من مؤسسات الحكم ، لا يقف أحد إزاءها موقفاً عدائياً إلا يعرض نفسه كيما يُعَلَّمَ عليه في ملفات البوليس بأنه (شخص خطير) .

إنه يمكننا أن نلخص هذا الجانب في كلمة واحدة : إنـه أيسر على (القـاصر) أن يحصل من السلطـات الاستعماريـة على رخصـة فتـح مقهى من أن يحصـل على رخصة فتح مدرسة ؛ وحتى رخصة المقهى فإنها خاضعة لبعض الشروط : يجب أن يكون المقهى ميداناً معَـدّاً لكل مـا يخـالف الأخلاق من قمـار ، ولكل عمل مشبوه فيه ، وإلا فإنه يغلق أبوابه بأمر من السلطات الاستعمارية عند أول فرصة .

لقـد استمعت ، سنـة ١٩٣٢ م ، إلى محـاضرة في أحـد المعـابـد البروتستـانتيـة بباريس ، يذكر فيها المحـاضر ، في نطـاق حـديثـه عن العـالم الإسلامي ، القصـة الغريبة التي حدثت لمقهى عربي بإحدى ضواحي العاصمـة : فصـاحب المقهى كان لا شك مسلمـاً يعمل بـأوامر دينـه ، حين لا يتعـاطى المشروبـات المسكرة ، ولا يسمح بـالقمار في محلـه ، وسرعـان مـا وجـد نفسـه ، هـذا (الشخص الخطير) في مضايقات أحاطه بها البوليس في كل يوم .

ولقد أدرك هذا الرجل خطورة انتهاج سبيل الفضيلة فتركـه ليمشي في سبيل الرذيلة ، حينئذٍ تركه البوليس يتنفس .

فنحن نـدرك على ضـوء وقـائـع كهـذه ، الخطـة السريـة ـ ويكاد السر هنـا يكون مكشـوفـاً ـ التي يتبعهـا الاستعمار لتلـويث المستعمَر والحـط من كرامتـه ، حتى لا يبقى له أي استعداد ولا عدة للتطور إلى ما هو أحسن أدبياً ومادياً .

وهكذا كلما وضع الاستعمار الترتيبات اللازمة لإفقار المستعمَر ماديـاً ، فـإنـه يتبعها بالترتيبات الخاصـة بتلويثـه الأخلاقي ، ليزيـد الإفقـار والتلويث معـاً في اتساع الهوة التي يجعلها أمام (القاصر) حتى لا يستطيع بلوغ رشده أبداً .

وهكذا ندرك لماذا يفضل الاستعمار شيئاً من الغموض حول مواقفه إزاء قضية تحرير الشعوب المستعمَرة ، حتى إذا اضطرته الظروف الـدوليـة للحـديث في مثل هذا الموضوع ، فـإنـه يفضل أن يتحـدث عن (مراحل التحرر اللازمـة) دون أن

يحدد طبيعة هذه المراحل ولا مدتها . هذا بالنسبة إلى المستوى الدولي ، أما بالنسبة إلى علاقة (الحامي) بـ (القاصر) مباشرة ، فإن الأشياء تكون على جانب أكثر من الوضوح : فكل مطالبة من قبل (القاصر) للمستعمر كما يعترف برشده يعد خروجاً عن الطاعة ، وصاحبه يرتكب في نظر الاستعمار ، أو في أقواله ، جريمة (التعصب) و (العنصرية) والحقد على الأجنبي ، أي أنه يتهم بارتكاب تلك الجرائم التي تضع صاحبها تحت رحمة قانون قمع يطبق بصورة رسمية في محاكمات مزعومة ، أو عن طريق التنفيذ الخاص ، حين تطبق (القانون) إما (يد حمراء) وإما (يد بيضاء) كما تنقل لنا الصحافة من حين إلى آخر .

وفي مثل هذه الظروف قد يتعرض (القاصر) إلى القتل الشنيع بكل بساطة مثل فرحات حشاد والهادي شاكر .

القضية في منتهى الوضوح إذن ، في نطاق الأحوال الشخصية ، فكل موقف يتضح فيه شذوذ (الحاضن) فإنه يؤدي قطعاً وعلى الفور إلى نتيجة قانونية محتمة : إلغاء عقد الحضانة لأنه أصبح مخالفاً للشرع وللأخلاق .

بينما نلاحظ عندما ننقل هذه الاعتبارات من الأحوال الشخصية إلى السياسة الدولية نلاحظ أنها لا تؤدي مفعولها ، كأن الأشياء تفقد جذرياً معناها ، وكأن المقاييس الأخلاقية تنعكس فتصبح سلبية ، لأن الاستعمار انفك عن كل المبادئ والتقاليد التي صاغت منها الإنسانية مقاييسها .

وفي عصر تملؤه فوضى الاستعمار ، فإن هذا الانقلاب في عالم المفاهيم الموروثة ، يزيد في الطين بلة ، حتى إننا أصبحنا عاجزين عن تفهم بعض الكلمات عندما يصرح بها رجل الدولة ، ولا ندري هل هو ينطقها عن جد وعقيدة ، أو لمجرد الحرفة الخاضعة للاعتبارات الدبلوماسية ، وفي حين كنا ننتظر من هذه الكلمة ذاتها ، مع مرونتها أو ميوعتها أحياناً ، ألا تتحدى الأخلاق

والذوق السليم ، إذا بنا نشعر بهذا التحدي كلما تكلمت الدبلوماسية بلغة تنعكس فيها فلسفة الاستعمار ، أو يتكلم بها من يعبر عن روح الاستعمار بصورة ما .

إننا لا ندعي حق التعقيب على سياسة فرنسا الخارجية مثلاً ، ولكن لا يمكننا أن نمر دون أن نعير بعض الاهتمام لمواقف وزير خارجيتها ، عندما تكون تلك المواقف معبرة عن اهتمامه بشأننا ، بصفتنا مسلمين ؛ ذلك الاهتمام الذي أدركنا معناه في التصريحات التي يدلي بها في بعض المناسبات ، كإبعاد الملك محمد الخامس عن عرشه . وإننا لا نذكر هذا الحادث بوصفه عملاً سياسياً ـ إذا صح أن نعبر عن جريمة العشرين من آب (أغسطس) بهذه الطريقة ـ بل بوصفه مثلاً نرى فيه إلى أي حد يبلغ احتقار الاستعمار لكرامة الإنسان حتى في التفاصيل الطفيفة ، إذ لم يتح للملك في تلك المناسبة المذهلة أن يرتدي ملابسه وهو يقاد قسراً إلى مغادرة وطنه ، وإلى أي حد تبلغ إهانة هذا الوطن الكريم في اليوم الذي يغتصب منه ملكه ، ويفقد بذلك آخر رمز لسيادته باسم الديمقراطية . إننا نتساءل ماذا تعني هذه الكلمة في لغة المسيو (بيدو) في المناسبات الأخرى ، فمن الواضح أنه لم ينطق بها إلا هذه المرة .

إننا نراجع بعض تصريحات هذا الوزير ، مثل التصريح الذي نقلته لنا صحيفة (لوموند) في عدد يوم ١٩٥٤/٢/٢ حيث يقول خليفة (ريشليو) « إنه ليس من المنطق ، ولا من سياق الكلام ، ولا من مقتضيات الزمان أن تفرض معاهدة سلم على ألمانيا فرضاً » .

حسناً ، فهذه كلمات تعبر دون ريب عن نظرة ديمقراطية واضحة ، ولا تشوبها شائبة ، ولا غبار عليها ، شريطة أن نستطيع تحويلها إلى مضمون تاريخي آخر دون أن تفقد معناها . إذ هذه الكلمات سوف تكون أكثر وضوحاً لو أن الفضل في نصر الديمقراطية في معركة (كسينو) يعود إلى المسيو (أديناور)

والشعب الألماني ، لا إلى الجنود المراكشيين من رعايا محمد الخامس ، هؤلاء الرجال الذين يمثلون وطناً لم يرع فيه مسيو (بيدو) ما رعاه في ألمانيا . إنه لم يقل بصدده « إنه ليس من المنطق ، ولا من سياق الكلام ، ولا من مقتضيات الزمان » أن تفرض عليه تلك الجريمة ، يوم ٢٠ آب[١] (أغسطس) الأخير .

حقاً .. إن فوضى الاستعمار تبلبل المفاهيم ، وتزيف الواقع وتذبذب الكلام . ولكن الذروة في هذا كله نبلغها عندما يحاول الاستعمار تعقيد الأشياء التي سلبها قواعدها ، وصيرها شواذ لا تتصل بقاعدة . إننا نبلغ الذروة عندما نرى الاستعمار يحاول إدخال هذا الشذوذ تحت حكم قواعد يضعها هو . وهكذا تمر هذه الأيام بمحاولة من هذا النوع ، أو بالأحرى تمر بمحاولات لربط هذا الوضع الشاذ بقواعد يطلق عليها منوني (الموقف الاستعماري) .

وعندما تتصل هذه المحاولات بالمستوى الفكري ، فإنها تدهشنا ، لأنها تكشف لنا إلى أي حد تبلغ السلطات الاستعمارية في تذويب المفاهيم الشرعية وتدليسها كي تفتعل منها القواعد اللازمة للكائنات الشاذة التي ولدها الاستعمار مثل (السيادة المشتركة)[٢] .

فهذا المفهوم الجديد هو أحد تلك الكائنات التي تكونت في ذلك المناخ الخصب من الشذوذ الذي وُلدَ الاستعمار فيه وَوَلَّد . فمن طرائف الطبيعة ما يحكى عن ذلك الطير الذي يبيض بيضاته في عش غيره من الطيور بعد أن يلقي ما يوجد به من بيض على الأرض ، فيكون صاحب العش مضطراً هكذا على قبول ما يفرخ في عشه من غير صلبه .

---

(١) اليوم الذي أزاحت فيه السلطات الفرنسية الملك محمد الخامس وأبعدته عن عرشه وبلاده .

(٢) صنع هذا المصطلح الغريب يوم كانت المعركة التحريرية تبلغ ذروتها بمراكش .

فالاستعمار ليس بالضبط مثل هذا الطير الغريب ، لأنه لا يحتل فقط عش غيره ، بل يحتل أيضاً ما ينتجه الشعب المستعمَر من يد عاملة بلا ثمن ، كي يسخرها في حقل (رسالته الحضارية) على حد زعمه .

إنه لا يسلب الشعب المستعمَر أشياءه فقط بل يستولي أيضاً على نفسه ، وهذا الاختلاس المزدوج هو ما يحاول أن يخفيه بكلمة جديدة (السيادة المشتركة) كما لو قال الطائر المختلس : (العش المشترك) .

ولو رجعنا بهذا المفهوم الجديد إلى المقاييس المستعارة من الأحوال الشخصية ، كما سبق إليها الإشارة ، فإننا نجد أنفسنا في الحالة التي يكون فيها من أسندت له الحضانة قد تعمد التزييف ، ليسلب (القاصر) بعض حقوقه ، من ناحية ، وليدلس على الرأي العام من ناحية أخرى ..

☆ ☆ ☆

الفصل الثّاني

في وحل السياسة

- حقد على الإسلام
- الملك محمد بن يوسف (يعترف)
- بلا خوف ومن دون تأنيب
- من المؤتمرات إلى المؤامرات
- من مؤتمر كولومبو إلى مؤتمر جنيف
- أقلام وأبواق الاستعمار
- رجل ووجهان
- بصيص الأمل

حقد على الإسلام

الجمهورية الجزائرية ١٩٥٣/٩/١١

إن جلالة الملك محمد الخامس احتل نهائياً مكاناً سامياً في ذكرى الأجيال المقبلة ، ودخل زمرة الوجوه الكبيرة التي تشع في التاريخ نور الإسلام .

إن الأحداث التي جرت في مراكش أخيراً لا زالت نتائجها معلقة ، في تلك المأساة التي تتخللها أحياناً تفاصيل مضحكة ... ولكن هذا الجانب المضحك يشعرنا أن من أراد أن يضحك في هذه القصة على غيره ، قد بدأ يشعر أنه أضحك غيره عليه .

إن هؤلاء القوم الذين صنعوا المسخرة ، والذين لا نعرف هل يصح أن نعد على رأسهم الاستعمار الفرنسي الذي يتزيا بزي الأكاديمي[١] ، أم الاشتراكية الفرنسية المتحلية بحلية قصر (الإليزيه)[٢] - تلك الاشتراكية التي أظهرت في مناسبة أخرى كيف تجيد لغة الصعاليك[٣] - إن هؤلاء القوم اعتقدوا أنهم سوف يصنعون تاريخ الوطن المراكشي بنسج بعض القصص مستوردة من مدينة مراكش[٤] .

---

(١) إشارة إلى المريشال (جوان) الذي لعب دوراً كبيراً في خلع الملك ومن المعلوم أنه عضو بأكاديمية الآداب .

(٢) إشارة إلى رئيس الجمهورية (روني كوتي) صاحب قصر الإليزيه بمقتضى منصبه .

(٣) إشارة إلى الوزير اليهودي (جول موش) الذي تفوه بكلمة (بيكو) بمناسبة زيارة الملك محمد الخامس لفرنسا .

(٤) مدينة الباشا الجلاوي الذي كان يضع هذه القصص تلبية للاستعمار .

ومن الطبيعي أن يفكر هؤلاء القوم في إضفاء (اللون المحلي) على هذه القضية . وفكرت الـ (كي دورسيه : وزارة الخارجية الفرنسية) فعلاً في تجنيد كل من يمت بصلة إلى صبغة الحقيقة وصناعة الأوهام في صفوف الصحافة الكبرى ، كي يوهموا الناس أن القضية لا تخرج عن نطاق (أزمة مراكشية داخلية) ليس للاستعمار الفرنسي فيها ناقة ولا جمل .

وعلى هذا شرعت الـ (كي دورسيه) في توزيع الأدوار على (رؤساء من الأهالي) ، ولكن الاستعمار الفرنسي لا يتمتع بمخيلة كبيرة ، حتى إنه لا زال يعيش على الأسلوب الذي نعرفه في القرن التاسع عشر .

وهكذا فإنه اكتشف أولاً لصين يستطيع تسخيرهما لأي شيء يريده ، ثم شخصاً ثالثاً مستعداً لقبول ما يوضع في كفه .

وهذا الثالوث المزركش دخل كثالوث (فراتليني) المشهور في عالم السيرك ، دون أن يكون لهم ما لهؤلاء البهلوانات من كرامة ، دخل هذا الثالوث في حلبة التمثيل حيث يقوم أحدهم ، وهو في مرحلة بدائية لا تحركه إلا الدوافع المنحطة أو المصالح المشبوهة ، بوصفه رجلاً يتاجر في (الرقيق الأبيض) ، أو باشا ولاه الشيطان على مدينة مراكش ، فهذا الرجل تولى دور (المراقب الأخلاقي) في القصة التي أخرجها لنا الاستعمار ، وهكذا برز شخص (الجلاوي) .

ثم وزع الدور الثاني ـ دور (الفقيه العارف بحدود الله) على فرد منحط من الطبقة البرجوازية ، نكون قد وصفناه بوصفه الحقيقي إذا قلنا ما يتمتع به من احتقار أهالي مدينة فاس مسقط رأسه ، وهكذا نعرف شخص (الكتاني) .

أما الشخص الثالث ، الذي قذفت به يد قوية في حلبة المسرح كي يقوم بدور الملك في هذه القصة ، فهو مستعار من تلك الفئة من الجمهور الفاسي التي

تتمتع بالجسم الدسم المشحم ، والتي نراها كل صباح تهرع في سوق اللحوم وبيدها السلة ... أعني أنه شخص لا يستحق أن نسميه .

فهذا هو كل الجهاز ، وعلبة الصبغة المجهزة لإعطاء القضية (اللون المحلي) .

وظن الاستعمار أنه سيوهم الناس بهذا الجهاز ، يوهمهم بأنها ليست قصة ملفقة ، ولعبة معدة ، وتمثيلية موضوعة ، بل هي التاريخ نفسه بلحمه وعظمه !!

ولكن هذا لم يخف الحقيقة لأن أذن الاستعمار كانت مكشوفة ، فلم يتوهم أحد كما كان يُراد إيهامه ، سواء بباريس أو بالرباط ، أن الجيوش التي طوقت القصر الملكي ، وأن المدافع التي صوبت إلى المدينة العربية ، وأن الدبابات المستعدة للطوارئ .. وأن ... وأن كل هذا الجهاز الحربي المعد بكل وضوح ضد الملك وشعبه ... ما هو إلا (إرادة الشعب المراكشي) .

ولكن ما منع هذا الوضوح الصحافة الكبيرة من أن تتابع فضيحتها ، فيتكلم أحد المراسلين عن (المبايجة) ويعني لا شك (المبايعة) دون أن يدرك معنى هذا المفهوم ، ثم يتكلم عن الترتيبات الحربية التي اتخذتها السلطات ، ضد الشعب المراكشي ، ثم يعود إلى الدرس الذي لقنته لهم السلطات ، فيكتب : « إن الشعب المراكشي قد اختار الملك الجديد ، في حرية تامة » .

ولكن يبدو أن هذا الاستنتاج المولد لم يخف الحقيقة عن نظر صاحبه على وجه الخصوص ، إذ نراه ، كأنه ينتقم لضعف منطقه وفشل محاولته ، فينتقم بالخساسة المعروفة عن أمثاله ، ينتقم من شخص الملك بالكلام السخيف عن (حريمه)[1] .

---

(١) وكلمة (حريم) تؤدي في اللغة الفرنسية غير المعنى الذي تؤديه في اللغة العربية ، لأن تعدد الزوجات يعد في الغرب وصمة لا تغتفر .

ومما يجب ملاحظته ، أنه كلما فقد الأدب الاستعماري أنفاسه وبرهانه ، فإنه يلجأ إلى خردة (الكليشيهات) القديمة ، فيتهم الخصم بـ (تعدد الزوجات) و (الحريم) و (التعصب الإسلامي) و (الشيوعية) ... هذا إذا قرر الاستعمار إعدام حشود بشرية بكاملها . أو يتهمه بـ (النزعة الأمريكية) ، إذا أراد أن يغتال رجالاً مثل فرحات حشاد .

وربما يريح أعصاب مراسل جريدة استعمارية فرنسية أن يتحدث عن (زوجات السلطان) وعن ... أنه بصاق الحقد الطاغي .

وهناك أصحاب السر ، العارفون الوارثون بنص العقد الصريح الذين ورثوا الجمهورية الثالثة[1] ، والذين يتفضلون في كل أسبوع في جريدة محلية ، بالإدلاء بإرشاداتهم للجمهورية الرابعة .

وهم مجدون في ذلك ، بل ربما هم مخلصون بإخلاصهم إلى مصالح معينة ، فهم على كل حال لا ينخدعون لمهزلة مراكش .

ولكنهم ينخدعون بمجرد ما يحاولون تحليل الموقف بمراكش ، فهم يرون في كل ما حدث يد الجامعة العربية ، أما الأمية والبطالة والبؤس ، كل هذه الأمراض التي تجعل شعوب شمال إفريقية الثلاثة تعيش دون كفاف الحياة ، حيث يريد الاستعمار أن يبقيها فيه ، لأنه يرى في ذلك الطريقة الوحيدة لبقائه ، إن هذه الأمراض ما هي في نظر هؤلاء العارفين ، إلا الأسباب المصطنعة التي تسوغ بها موقفها (نخبة تستعجل استلام الحكم) .

فهذا هو المآل الخزي الذي يؤول إليه التفكير عندما يتجرد من الوازع الأخلاقي ويجرد منه الأمور الإنسانية ، إذ يؤول إلى استنتاجات مدهشة ، حتى

(١) من العهود الجمهورية الخمسة العهد الذي يعد مطابقاً لأوج التوسع الاستعماري الفرنسي .

يكاد منطقهم يقرر أن المجازر التي وقعت بتونس ، والمذابح التي حدثت بمراكش ، والتصفيات التي صفت الشباب الجزائري بالنار ، إن كل هـذا مـا كان إلا من عمل الضحايا أنفسهم ، ضحايا تلك المجازر وتلك المذابح وتلك النار .

ومن نتائج هذا المنطق الغريب ، إذا قسنـا على منوالـه أن نقول « إن الملك فضل أن يتنازل عن الحكم ، وهو ذلك الوجه الفريـد في نبلـه بين صفوف النخبـة المغربية ، لأنه من تلك النخبة التي تستعجل استلام الحكم ... » .

إن منطق الاستعمار يسلب الأشياء معناها ، حتى تصير بعيدة عن الفهم .

ولكن الـواقـع يبقى فـوق كل التـأويـلات ، فهـو يتكلم بلغتـه الـواضحـة ، المضبوطة التي لا تحتمل المناقشة .

إن الواقع هـو أن السلطـات الفرنسيـة ألقت القبض على جـلالـة الملـك محمـد الخـامس ، والبـوليس الـذي قـاده إلى محطـة الطيران لم يترك لـه حتى الـوقت الضروري لكي يرتدي ملابسه ، إن جلالة الملك فارق أهله وقصره وشعبـه ووطنـه في لباس النوم (بيجاما) لم يستطع ستره إلا بجلابة تقليدية .

والعبقريـة الاستعماريـة لم تتـورع عن أي تفصيـل في الانتقـام من الرجـل وامتهان كرامته ، لأن الاستعمار يتمسك بـالمـادة وبـالهوى في الوقت نفسـه . لقـد انتقم من الرجل الذي عارض تخطيطـاتـه الموضوعـة من أجل الاستبـداد والتفقير المادي والأخلاقي والعقلي ، ولم ينس تفصيلاً من التفصيلات في هذا السبيل .

بل إنه نسي بعض الأشياء ، لأنه ليس من طبيعتـه أن يـدركها : إن الملـك أخذ طريقه إلى المنفى ليلة (العيد الأكبر) ، عيد الأضحى ، عيد القربان .

وفي ذلك رمز لا ينسى التاريخ أن يسجلـه . ثم إن هـذا الملـك قـد أبعـد عن وطنه ، لأنه أراد أن يسن له دستوراً ديمقراطياً ، فهو قد ترك في قلب شعبـه حب الديمقراطية مقروناً باسمه .

وفي هذا انتصار باهر يأتي صفعة للاستعمار : فالديمقراطية تهاجر مع الملك وتذهب معه إلى المنفى ، تحت رعاية السلطات التي تدعي أنها تأتي بالديمقراطية من بلادها .

والذين يحاولون إضفاء (اللون المحلي) على هذه المأساة لا يستطيعون أي شيء لإيهام الناس ، لا يستطيعون ذلك أولاً في الحقل الذي يهم بالخصوص (الكي دورسيه) ، الذي لم يفلح في الواقع إلا في نصب حكم في الرباط لا قيمة شرعية له ولا دولية ، لأن الحكم الشرعي هاجر مع صاحبه ولا يبقى من يتولاه بعد بصورة شرعية إلا خليفته في طيطوان ، في المنطقة الإسبانية .

وهكذا تبين أن (الكي دورسيه) وعصابة الرباط قد خسرا ما كان بأيديهم من عوامل الكسب ، حتى بالنسبة إلى (السياسة التقليدية) الفرنسية بمراكش ، بينما لا تخص نتائج إبعاد الملك والظروف التي تحيط به السياسة فقط .

فبقدر ما تتوضح هذه النتائج ، سيجد الاستعمار نفسه مكشوفاً مهما تكن محاولات من قام بهذه المؤامرة ، ومن ساندهم ، ومن أيدهم بالأموال أو أدلى لهم بالإرشادات .

وهكذا يستقر الأمر بالتالي على نتائج غير منتظرة ، سيكون حتى لعلم الكلام فيها نصيبه إذا عددنا الاستعمار يأتي في القرن العشرين ، بالحجة القاطعة ، على أن الروح البشري لا يعتريه التغيير والفناء ، لأنه استطاع أن يواجه جرائمه في البلاد المستعمَرة ، وما كان ليستطيع ذلك لو لم يكن غير قابل للتغيير ، لأنه حقيقة من عنصر الخلد .

ولكن القضية تتضمن نتائج أخرى تهم على وجه الخصوص الوضع البشري وهي نتائج بسيطة :

إن الشعوب الثلاثة الإفريقية ستفكر في التحدي الغريب الذي قذفه في وجهها الوزير (بيدو) عندما قال : « إنني لن أترك الهلال ينتصر على الصليب ».

قاتلها الله كلمة يدوي فيها صوت القرون الوسطى ، فيكشف عرضاً كنه القضية . لذا يجب أولاً أن توضع هذه الكلمة في معناها الصحيح ، أعني أن توضع في فكر صاحبها ، مجردة من اعتبارات الدبلوماسية .

إن المسلم يعلم أن الإسلام لم يعتد على أي مفهوم من المفاهيم المسيحية خلال القرون ، وثقته في هذا الصدد ليست ثقة عمياء قائمة على عقيدته ، بل ثقة إيجابية يدركها عقله .

وهو بالإضافة إلى هذا ، يتحدى كل من له اختصاص في تزييف التاريخ ، أن يأتي بما يناقض هذه الحقيقة .

إن كل فتوحات الإسلام لم يسجل فيها التاريخ مذبحة واحدة ، تماثل تلك التي يفاجئنا بها الاستعمار من حين لآخر ، ولم يقتل طفلاً واحداً أمرت بقتله سلطة عليا .

وعليه فكلمة (بيدو) إذا ما راجعناها في قاموس هذا الوزير ، فإنها تعني شيئاً آخر ، كأنه أراد أن يقول بالتلميح : « يجب أن نوقف الإسلام عند حده » .

ولا ندري مع هذا ، إذا كان سيادة الوزير يتمتع بالسلطة الأخلاقية التي تخوله أن يتكلم باسم المسيحية : فهل له سلطة الباشا الجلاوي عندما يتحدث عن تقاليد الإسلام ؟

ولكن بقطع النظر عن السلطة الأخلاقية ، التي لها من يمثلها بشكل أفضل ، فإنه يجب أن نعترف له بسلطة الحكم .

وعندما يتحدث وزير خارجية (الوحدة الفرنسية) ويقول : إنه يجب إيقاف الإسلام عند حده ، فإننا نشعر بخطورة الموقف على مستوى الفرد الذي له ضمير إسلامي .

فالمسلم يتساءل فعلاً ، هل له حق الحياة في الشمال الإفريقي ، أم حل عليه واجب الهجرة ، إثر جلالة الملك على طريق المنفى ....

☆ ☆ ☆

تعليق

إننا نرى من الواجب أن نعيد إلى هذه المقالة الضوء الذي كانت تلقيه عليها الظروف التي أحاطت بدفع الملك محمد الخامس إلى المنفى ، حتى يدرك القارئ في صميم الواقع حقيقة تعليقنا ـ في كتاب (الصراع الفكري) بصورة عابرة ـ عن العلاقات المتسترة التي تنشأ أحياناً في البلاد المستعمَرة بين الاستعمار وبعض القادة السياسيين في تلك البلاد .

إن القارئ الكريم الذي تتبع بإمعان ما كتبنا في هذه المقالة ، قد أدرك أن الجو الذي يحيط بالحوادث التي نشير إليها يمكن تحليله إلى ثلاثة عناصر ذاتية وموضوعية :

١) قصة إبعاد الملك في ظروف معينة .

٢) موقف الوزير (بيدو) الشخصي منها بوصفه مسيحياً متعصباً ينتقم من الإسلام .

٣) محاولة السلطات الاستعمارية إضفاء (اللون المحلي) عليها ، ودور الصحافة الباريسية في تلك المحاولة ، كي تعرض إلى الرأي العام القضية على أنها صراع (محلي) بين الملك والشخصيات المراكشية التي أشرنا إلى ثلاثة منها .

فالقارئ الذي تتبع مقالتنا بشيء من الإمعان ، قد شعر لا شك ، بأنها كانت مركزة حول هذه النقطة الثالثة بالذات ، أي على كشف التدليس الذي كانت تقوم به السلطات الفرنسية ، كي تعطي القضية صبغة تناسب السياسة المقررة إزاء مراكش وملكها .

ومن الطبيعي أن تشعر هذه السلطات بشيء من الحرج أمام كل قول يقال ، أو سطر يكتب ، ليكشف خطتها للرأي العام في ظروف مكهربة تنذر بثورة شاملة في المغرب .

ولا شك أن نصيب مقالتي في هذا الإحراج كان لا يزهد فيه ، حتى إنه كان من المتوقع أن ترد تلك السلطات عليه بصورة أم بأخرى .

ماذا كانت الصورة التي ردت بها ؟

هنا الحادثة التي نريد عرضها للقارئ بوصفها عينة يظهر من خلالها أسلوب (الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة) في صورته الواقعية كما صورناه له في الكتاب الذي نشرناه بهذا العنوان .

إن الاستعمار كان يستطيع أن يحطم صاحب المقالة بين السبابة والإبهام ، ولكنه لم يكن يريد تحطيم صاحب المقالة ولكن المقالة نفسها ، ومن الطبيعي أنه لو مس شخصي بسوء ظاهر في تلك الظروف لكشف أمره بنفسه ، كما أنه لو حاول الرد المباشر على مقالتي بخط يده وفي صحافته لهزئنا من بلادته .

فماذا فعل ؟

إنه بكل بساطة أوكل الأمر إلى زعيم سياسي ، فكتب هذا الزعيم مقالة في الموضوع ، نشرت بالضبط بعد مقالتي بأسبوع وفي الجريدة نفسها ـ جريدته من مال الشعب ـ وقال فيها مما قال : « فلهم إذا شاؤوا أن يفسروا القضية لجمهورنا ،

الذي يندفع أحياناً إلى تبسيط الأشياء ، على أنها قضية تمت إلى الجنس والدين . أما نحن فنذكرهم أن شخصاً مثل الجلاوي وآخر مثل الكتاني ، ينتسبان أيضاً إلى جنسهم وإلى دينهم . » (الجمهورية الجزائرية ٩ / ١٠ / ١٩٥٣) .

هذا ما كتبه ذلك الزعيم ، ولم يقل بطبيعة الحال إنه يرد علينا ولكن القارئ أدرك ذلك من الكلمات نفسها ، كما أدرك ما تعني هذه الكلمات ذاتها بوصفها تأييداً للاستعمار في ظروف ، يريد أن يصور كل ما حدث فيها على أنه مجرد نزاع بين الملك وبين الجلاوي والكتاني .

إن القارئ أدرك ما يستطيع الاستعمار في البلاد المستعمرة على وجه العموم والبلاد الإسلامية المسكينة على وجه الخصوص .

ومما يزيد في هول الموقف ، أنني حاولت ـ بعد ما نشر هذا الرد المقنع ـ حاولت أن أنشر مقالتي باللغة العربية حتى تؤدي مفعولها بصورة مباشرة ، فأرسلت بها إلى جريدة جمعية العلماء (البصائر) وأوكلت لها أمر الترجمة والنشر .

فلم تفعل شيئاً ، لأن جهازها الصحافي باللغة العربية وباللغة الفرنسية ، كان كله تحت تصرف عملاء نعرفهم ، وأردنا أن نكشف أمرهم في حديثنا مع الشيخ (العربي التبسي) في مناسبات مختلفة ، ولكن دون جدوى ، لأن فضيلة الشيخ على الرغم مما نعرف له من سمو أخلاق ، لم يكن يفقه معنى لأسلوب الصراع الفكري ، حتى عندما يكون هذا الأسلوب في منتهى الوضوح .

☆ ☆ ☆

الملك محمد بن يوسف (يعترف)[1]

الجمهورية الجزائرية في ١٤ / ٥ / ١٩٥٤

مـا إن وصل الملـك المبعـد إلى جزيرة (ليل روس) حتى تحـددت إقـامتـه ، ووجد جلالته نفسه ، أمام سلطة قهارة سحبته من هذا العالم سحباً وأحاطتـه بجو من الصمت والكتمان ، يحرسه ليلاً نهاراً ويفصله عن العالم جيش من البوليس .

والصحافة الكبيرة ، مثل جريدة (لومونـد) تفسر لنـا هـذا الوضع الشـاذ ، على أنه مجرد ترتيبات احتياطية ، احتياطاً من (فرار) السجين الكبير .

ولكننـا علقنـا في هــذه الصحيفــة نفسهــا ـ في عــدد مضى[2] ـ على هــذه الترتيبات ، فقلنا إنها ليست مجرد احتيـاطـات ، بل إنهـا تخفي أغراضـاً سيـاسيـة معينة ، قررها مجلس أركان حرب الاستعمار الأعلى .

وقلنا بالحرف : « إن الكي دورسيه الذي لم يكن يريد الحوار مع ملـك حر ، يعبر بكل حريـة عن إرادة شعبـه، يريـد الآن حواراً مع سجين يمكنـه أن يفرض عليه ما يريد من الضغط الشديد ، حتى يقربه من وجهـة نظره ؛ وربمـا يغتصب منه تصريحاً يجعل منه القاعدة الشرعية التي يضع عليها الحكم الوهمي الذي استلمـه من يده عميل الرباط .. »

---

(١) إن طرق (الاعتراف) معروفـة لـدى البوليس الفرنسي ، فهو يعرف كيف يضغـط معنويـاً أو مادياً على من يكون تحت يده حتى يجبره على (الاعتراف) بكل ما يريد منه .

(٢) لم نجد هذا العدد تحت أيدينا .

وهـا هي ذي الظروف تصـدق تنبؤنـا ، فتـأتي صحيفـة (لومـونـد) نفسهـا ـ الصحيفـة التي وصفت لنـا في شهر أيلـول (سبتمبر) عـزل الملـك عن العـالم ـ لتخبرنـا الآن (في عـدد ٢٤ / ٤ / ١٩٥٤) أن الرجـل ، تحت تـأثير الـوحـدة والتهديد ، وصل إلى (درجة الاعتراف) . وإذا سمح لنا القارئ أن نتكلم بـاللغـة التي تناسب هذا الموقف ، في هـذا الجو الخـانق الـذي أحـاط بـه البوليس الفرنسي حياة الشعب المراكشي كلهـا ، في الظروف الحـاليـة فنتسـاءل : بـأي شيء اعترف جلالة الملك ؟

إننا لا نـدعي معرفـة النص الـذي وضع تحتـه إمضـاء الملـك السجين ، وإنمـا طالعنا بعض السطور الغامضة التي نشرتها صحيفة لوموند مقتطفة من هـذا النص حسب زعمها .

ولكن الشيء الـوحيـد الـذي يبـدو واضحـاً في كل هـذا ، هـو رغبـة (الكي دورسيـه) في إعطـاء هـذا النص ـ مهما تكن قيمتـه التـاريخيـة ـ قيمـة الـوثيقـة الديبلوماسية[1] .

إننا نترك لرجال القانون أن يقدروا هذه القيمة من زاويتهم الخاصة ، ولقادة السياسة المراكشية الوطنية أن يقدروها من الناحية السياسية ، إنما نريد أن ننظر إلى الأشياء هنا من الناحية الإنسانية فقط .

إن مـا يبـدو واضحـاً من النظرة الأولى في المقتطف الـذي نشرتـه صحيفـة لوموند ، مما تسميه (رسالة الملك) ، هو الجهد الذي بذله صاحب الاقتطاف ، كي يبقى القارئ الذي يطالعه تحت تأثير تعليقاتـه ، بقـاء لا يجـد معـه فيما يطـالعـه ما يسمح لـه بتكوين رأيـه الخـاص في الموضوع ، إنـه كان مما يتعين في مثل هـذه الظروف أن يعطي للقارئ حق مطالعة (اعترافات) الملـك في نصهـا الحرفي ، لا

(١) إن هذه المقالة كانت تهدف بالضبط إلى تنبيه الرأي العام ، حتى لا تكون أي قيمة شرعيـة لنص يمضيه سجين في ظروف قاهرة أو يزور عنه تزويراً .

في تعليقات من يعلق عليها ، بينما لا يقول لنا عن هذا النص إلا شيئاً واحداً هو أن (الكي دورسيه) قد قام بنشره .. أين ؟ ! ومتى ؟! فهذا مالا نعلم عنه شيئاً .

حتى إننا ، بعد مطالعة مانشرته (لوموند) ، لانستطيع أن نفهم أثراً لتفكير الملك في هذا الفتات المقتطف الذي لا يسمح بتفهم الوقائع ، ولا بإصدار الحكم الصحيح عليها ، إذ الفتات يكون أحياناً كلمة واحدة موضوعة بين هلالين في جملة طويلة للمحرر ، وضعاً لاتفيد معه أي معنى خاص .

فعلى سبيل المثال نقرأ هذه الجملة « إن سيدي محمد يستسيغ الترتيبات التي اتخذت بشأن إدارة مصالحه الخاصة و (شاهد)[1] أن الإجراءات المطبقة من أجل شخصه بمدغشقر ، لا تخرج تقريباً من نطاق المألوف المعتاد » .

فنتساءل ماذا تفيد كلمة (شاهد) الموضوعة بين هلالين كي يفهمها من وصفها هكذا ، أنها من تحرير الملك ، ماذا تفيد في جملة طويلة هي من محرر (لوموند) .

فلو أن المحرر وضع في جملته أي كلمة أخرى بين هلالين ، مازاد أو قلل من فهم القارئ لفكرة تنسب للملك في هذا المقتطف .

فهذه الفكرة تستعصي علينا ، لأننا على خلاف مانعرف لها من الوضوح ومن إدراك للواقع . وعلى قدر رده نجدها هنا ، عندما تعترضنا في جملة أو في شطر جملة يضعها محرر لوموند بين هلالين ، كي يشعرنا بأنها من قلم الملك ، نجدها في منتهى الغموض ، في صورة غير مألوفة ، وكأنها تقف إزاء الأحداث موقفاً لا يتفق مع طبيعتها .

فلماذا ، على وجه المثال ، يلتزم الملك بأنه سيمتنع عن « كل نشاط سياسي ، وعلى وجه الخصوص عن كل ما يؤدي إلى اضطراب الوضع بمراكش ... » ؟

(١) كلمة « شاهد » تفيد أيضاً معنى اعترف .

أليس شطر الجملة هذا الموضوع بين هلالين ، يأتي كأنه تكذيب للواقع التاريخي المتصل بالأحداث التي أهمت (الوضع) بمراكش (يوم خلع الملك) وبموقف الملك (موقفه المشروع إزاء هذه الأحداث) لأنه الحريص على هذا الوضع في بلاده ، حتى لا يضطرب بسبب أي فرد من رعاياه .

إن الموقف انقلب رأساً على عقب ، في مقتطف لوموند انقلاباً أصبح معه الحريص على (الوضع) في البلاد كأنه (يعترف) اعترافاً ضمنياً ، بأن الوضع لم يضطرب بسبب شخص معين ، هو (الجلاوي) الذي استأجرته بعض المصالح التي يعرفها (الكي دورسيه) جيداً ولكنه اضطرب بسببه هو .

إن لتصريح الملك مفعولاً رجعياً ، إذ لو صح أنه سوف يلتزم في المستقبل بالتزام كهذا ، فهو يعني أن جلالته يعترف ضمناً بأنه هو المسؤول عما حدث من اضطراب بمراكش ...

وهذا هو بكل وضوح (الاعتراف الصريح) الذي يريد الاستعمار الحصول عليه .

ولكن بأي ثمن حصل عليه ؟[1]

إن بيد الاستعمار وسائل ضغط مختلفة ، فبيده أولاً الضغط الاقتصادي على أملاك السلطان ، ولا شك أن اعتراف جلالته باستقامة من أوكل إليه أمر إدارة هذه الأملاك ، كان في جملة الاستعدادات الشيطانية التي اتخذها (الكي دورسيه) بهذا الصدد . ومما يؤيد هذا ، أن الصحافة الاستعمارية أعادت الكرة مرات خلال الشهور الأخيرة ، للمطالبة بوضع الحجز على ممتلكات العائلة المالكة .

---

(١) إننا كنا مضطرين إلى هذا التساؤل بسبب خطورة الموقف ! وقد كنا نريد الدفاع عن الملك مهما تكن التصريحات التي ربما تفرضها عليه ظروف قاسية ، ولم تكن لدينا المعلومات الكافية حتى لا نضطر للافتراق .

ولكن ربما كان الضغط أشد من ناحية رغبة الملك في نقله مع أسرته إلى إقامة جديدة بفرنسا ، ولكن بعد أن (يعترف) جلالته بأن إقامته الحالية (مرضية في الجملة) بقدر ما تسمح به (الإمكانيات المحلية) .

فكيف استطاع جلالته أن يقدر هذه الإمكانيات ؟ ذلك سؤال نصفح عنه الآن ....

ولكن يبدو أن (الكي دورسيه) ـ كما توقعنا ذلك منذ شهر أيلول[٢] (سبتمبر) ـ يحاول أن يكسب كل ما يستطيع أن يكسب من ذلك السجين الذي وضعته الظروف تحت يده .

---

(٢) أي منذ إبعاد الملك إلى المنفى .

بلا خوفٍ ومن دون تأنيب[1]

الجمهورية الجزائرية في ٢ / ١٠ / ١٩٥٣

إن اغتيال الزعيم التونسي (الهادي شاكر) يبدو في الظروف الحالية ، في صورتين : فهو جريمة ، وهو في الوقت نفسه عمل سياسي .

إن أي اغتيال قد يكون أحياناً خاضعاً لحتمية مفروضة على المجرم ، نتيجةً لعمل سابق ، يدفعه إلى سلسلة جرائم .

وفي غالب الأحيان ، فالقانون وحده هو الذي يضع حداً لهذه السلسلة ، حينما يرسل المجرم إلى المقصلة ، كي يضع حداً لسفك الدماء .

ولكن أين القانون الذي يضع حداً لمهنة الاستعمار الدامية ؟.. يا(أتيلا) !! إن شبحك ، على ذلك الهرم من الجماجم ، كما عودنا التاريخ أن نراك ، إن شبحك هذا لم يبقَ إلا صورة شاحبة لوحشية كانت في عهد الطفولة .. إذ وازنّاها بوحشية المتحضرين الكبار اليوم . بل إن أصغرهم ، أصغر من يرتدي منهم لباس المليشيا ، بشوارع المدن الجزائرية ، هو مثل مدينة حالمة ، قد جاوز عهد الطفولة المجرمة ، وبلغ سن الرشاد في الإجرام ... فأصبح يغتال القانون ذاته ، ففي تلك الشوارع ، ماإن يلقى القبض على الشباب الجزائري ، ليقوده إلى المحاكمة المزعومة ... حتى يغتاله في اليوم نفسه وفي الطريق ... في الطريق إلى المحكمة .

---

(١) هذه العبارة كانت شعار الفروسية في القرون المتوسطة بفرنسا ، وشعار الفارس (بياز) على وجه الخصوص ، الذي يزعم بهذا الشعار أنه لا يرهب الموت ولا يخشى تأنيب ضميره ، لأنه لا يرتكب رذيلة ؛ وقد اخترته عنواناً لهذا المقال على سبيل السخرية كما يدرك ذلك القارئ .

إنه لم يبق شيء يحفظ الأبدان والأرزاق من تونس إلى الرباط ...

ولكن من الخطأ أن نجسد الإجرام في ذات معينة . إن الاستعمار لا يسمي (مرتينو ـ ديبلا)[1] ، بل إنه وحش ذو رؤوس وأيدي متعددة ، إنه في كل مكان يشع منه الإجرام ، وهو في كل مكان يغتال « بلا خوف وبلا تأنيب » ...

يخاف من ؟ فالبوليس زميله في الإجرام .

ومن يؤنبه ؟ .. من يكون له من الجرأة ومن اللامبالاة ما يكفي حتى يؤنب رجل الحضارة ؟...

فإذا كان مسلماً هو هذا الجريء الذي يقوم باحتجاج ، فالسجن مآله ، وكذلك حجز أمواله ، والاغتيال .

وإذا كان هذا الجريء من الفرنسيين المعتدلين ، فسوف يقول له قائلهم بلغة الصعاليك : « كفى ! كفى ! » .

إن الاستعمار (محيط) ، محيط بالمجرمين الذين يضعون (قانونهم) الخاص فوق القوانين والأخلاق .

حتى إن المجرمين الذين اغتالوا (الهادي شاكر) ، لم يكونوا في حاجة إلى تعليق لافتة على صدر القتيل ، عليها هذه الكلمات « إن شيئاً لا يقف في سبيلنا » .

إننا في هذا على أتم اتفاق معهم ، لأننا نعلم كما يعلمون هم ، أن الشعب التونسي لا يستطيع أن يؤسس قوة عمومية لقمع الجريمة ، فللصعاليك إذن أن يغتالوا ما يشاؤون ، « بلا خوف وبلا تأنيب » .

---

(١) وزير الداخلية الفرنسي في الفترة التي وقع فيها أكبر عدد من هذه الجرائم والاغتيالات .

هل لدم العباد قيمة ، من الدار البيضاء إلى تونس ؟ ليست الجريمة هي الأمر المهم ، في حد ذاتها ، ولكن الغرض منها وهدفها .

إن السياسة الاستعمارية الفرنسية أصبحت منذ سنة ١٩٤٥ سلسلة من جرائم محتمة ، والاستعمار لا يمكنه ، حتى أنفاسه الأخيرة والقضاء عليه ، أن ينفك من قيود تلك الحتمية ... إنه في قبضة الجريمة ... فإذا انتهى من جريمة أولى وجد نفسه مدفوعاً لجريمة ثانية ليكفر بها عن الأولى ... فأي حد من هذا الاطراد المفجع لا يفسر بنفسه ؛ ولكن بالحد الذي سبقه .

إن مسوغات محلية موجودة بلا شك لتسويغ اغتيال (الهادي شاكر) ، ومنها أن يبقى الشعب التونسي دون قيادة تحت الإرهاب ، فتفقد بذلك مقاومتُه حدتها ومضاءها .

ولكن يبدو أن الشعب التونسي قد اتخذ عدته واستعداده إزاء هذه المناورات ... وهنا لانستطيع تفسيراً لقتل (الهادي شاكر) إلا في حدود أوسع من النطاق التونسي ، أعني في ذلك الجو المكهرب الذي لا زال ممتلئاً بمجهولات تتصل بإبعاد ملك مراكش وبتحديد إقامته في جزيرة (كرسيكا) ، في ظروف غريبة .

والاستعمار يعلم مصلحته في إسدال الستار على هذه القضية ، إذ يعلم أنها ـ كما أشرنا إلى ذلك في مقال سابق ـ لم تبرز بكل توقعاتها إلى الآن .

وتعليقات مراسل لوموند على هذه الحالة ، التي تفسر لنا تحديد إقامة الملك على أنها مجرد احتياطات من (فرار) متوقع ، ما هي إلا تعليقاتُ مضحكٍ يريد أن يسلينا ، أو إنسان استولى على عقله أسلوب القصة البوليسية .

إن الاستعمار يعلم جيداً أن السجين ليس له أي نية في الفرار إلى الجبل كلصوص الجزيرة ، وعليه فإن إحاطته بهذه الاحتياطات المدققة لا تدل إلا على

شيء واحد ، هو أن الاستعمار يريد عزله عزلاً تاماً ، حتى لا يعلم شيئاً عن نتـائج إبعاده ، سواء في وطنه أو في الخارج .

فمن مصلحة مجلس أركان حرب الاستعمار ، من مصلحتـه العليـا أن يتم هـذا العزل في الاتجاهين : في عزل الملك عن الخارج إذ لم يتركوا له حتى جهاز مـذيـاع تحت يـده ، وفي عزل الخـارج عنـه ، ولـو تطلب هـذا ارتكاب جرائم مثيرة تلفت الأنظار .. وتصرفها عن الجرائم السابقة . وهذا ما يفسر اغتيال (الهادي شاكر) .

وهذا يعني أن (الكي دورسيه) ، الذي لم يكن مستعداً للمفـاوضـة مع ملـك حر ، يعبر بحريـة عن إرادة شعبـه ، يريـد الآن الحـوار مـع سجين يستطيـع أن يضغط عليه بما يراه ، مناسباً حتى يقربه من وجهة نظره .... وقد يتساءل بعض البسطاء لماذ يتكلف (الكي دورسيـه) هـذه الجهود كلهـا ليقرب من وجهـة نظره ملكاً لم يبق له سلطان على عرشه ... ؟ أما الاستعمار الـذي أحكم الخطـة فهو يعلم الجواب .

ولنكن واثقين من أنه سيبـذل كل مـا يستطيع من حيلـة وكيـد للوصول إلى هدفه ، أي للحصول غصباً على بعض التنازل من جانب الملـك وبعض تصريحـات تصلح قاعدة شرعية لحكم الملـك ، المصنوع بـالربـاط ؛ ولقـد يكون مستعـداً ، في سبيل ذلك ، إلى ترك الباشـا الجلاوي وشـأنـه ...[1] شريطـة أن يصرح الملـك أو يقتنع بأن شعبه شيء لا وجود له ، وأن هيئـة الأمم أسطورة من الأسـاطير ، وأن الجامعة العربية طيف من الخيال .

وهل يمكن هذا إلا بعزله من العالم وعنه .. كي ينسى أنه موجود ؟!.

☆ ☆ ☆

(١) كما فعل يوم اضطرته الثورة الجزائرية إلى التراجع عن سياسة العنف إلى سياسة اللين والكيد .

من المؤتمرات إلى المؤامرات

الجمهورية الجزائرية في ٢٥ / ١٢ / ١٩٥٣

إننا لم نتتبع ، بصورة منهجية ، تاريخ العلاقات الاقتصادية التي نشأت في العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، حتى تكون لنا فكرة دقيقة عن المؤسسة الاقتصادية التابعة للتضامن الأوربي من حيث محتواها المذهبي ، وعن الغرض الذي أسست من أجله ؛ ولكننا ندرك أهميتها ومهمتها ، من المكان الذي تحتله في المقالات الرئيسية التي تنشرها يومياً الصحافة الغربية .

إننا ندرك هذه الأهمية والمهمة على وجه الخصوص ، من خلال التقرير الذي خصصته هذه المؤسسة لدراسة الحالة الاقتصادية الفرنسية ، ذلك التقرير الذي نشرت منه جريدة (الفيغارو) مقتطفات مسهبة في عددها المؤرخ في يوم ١٤ / ١٢ / ١٩٤٣ ، إننا نجد فيه نقداً مفيداً يتعرض لنظام الحماية الاقتصادي الفرنسي ، الذي أصبح صعباً بمقتضى الصلات الدولية ، وإنه على مذهب صاحب التقرير ، أصبح صعوبة عضوية تواجهها (مجموعة الدول الأوربية الأخرى) .

ففي هذا التقرير نشاهد رأي العين أن فرنسا لم تنجح في تحرير وارداتها ، في الحدود التي نصت عليها اتفاقية التبادل التجاري الحر ، وهي القاعدة ونقطة الانطلاق التي ينطلق منها نقد المؤسسة في هذا التقرير ، فسبب الضعف الأساسي ينتج ـ في نظر هذا النقد ـ من شدة الحماية الاقتصادية التي تتمسك بها فرنسا ، لوقاية إنتاجها وراء أسعار لا تستطيع المنافسة في السوق .

فهذا الوضع ربما لا يهمنا كثيراً في صورته العامة ، ولكن لا يمكن لألفاظ التقرير أن تفاجئ القارئ الجزائري مادام يعرف جيداً ، في محيطه الخاص ،

الحالة التي تصفها هذه الألفاظ مثلاً عندما يقول التقرير : « لقد تكون وراء التسعيرات والتحديدات الكمية ، نظام حماية داخلي ، نتجت عنه امتيازات نشأت وتبلورت تؤكدها مجموعة من الوسائل ، حتى أصبحت في نظر أصحابها حقوقاً مسلمة ، دون مراعاة ما يقتضيه (المردود الاقتصادي) ، وتتنوع هذه الوسائل من مجرد الترتيبات العامة لتقرير الأسعار ، عن طريق النص القانوني أو طريق المنحات على حساب الميزانية ، إلى اتفاقات خاصة ! سواء كانت مكشوفة أو ضمنية وإلى ... وإلى التدليس على القانون » .

إننا لا نرى في هذه السطور صورة المظهر الداخلي لحالة معينة ، بل نراها تعطينا أيضاً فكرة صحيحة عن آلية هذه الحالة ونفسيتها . فنحن نجد فيها ، على وجه الخصوص ، التصوير الكافي لاقتصاد استعماري نعرفه بتلك « الامتيازات التي أصبحت في نظر أصحابها حقوقاً مسلمة » .

وإننا ندرك هكذا تلك المعجزة ـ حتى لا نقول تلك الفضيحة ـ التي يتميز بها سعر الحلفة الذي يأخذ ضعف قيمته مرتين وثلاث مرات ، على بعد خطوات من الحدود الجزائرية ، بالأرض التونسية ، أو يأخذ ضعف قيمته عشر مرات على ظهر باخرة في ميناء جزائري ... أي عندما يخرج من يد العامل الجزائري الذي ينتجه ، ويدخل في حوزة الأوربي الذي يراقب سوقه على أساس « الضمانات القانونية التي تحدد سعره » له ، على حساب مصلحة العمال الخاصة وعلى حساب المردود الاقتصادي بصورة عامة . فكل منتوج نصدره إلى الخارج كما تنتجه الطبيعة ، يكون تصديره خسارة بالنسبة إلى الحالة الاجتماعية في بلد معين ، خسارة تحدد اقتصادياً ما يسمى (البلد المتخلف) .

وربما انتهى التقرير إلى أن درجة النمو الاقتصادي الموائمة ، تكمن في اقتصاد لا يكون موزعاً في أيدٍ كثيرة يمنع توزيعه كل تنظيم ، ولا مجمعاً في الاحتكار ، يمنع احتكاره عمليات الرقابة ويسلبها قيمتها (بمجموعة من الوسائل) .

ولكن إذا كانت بعض البلاد تشكو من مفاسد التوزيع المبالغ فيه ، فنحن في الجزائر نشكو من مساوئ الاحتكار ، ومن (احتكار الراية أولاً)[1] الذي أدى بزعمه المحافظة على مصالح فرنسا ، إلى تأسيس امتيازات نعرف أثرها السيئ على النمو الاقتصادي بالجزائر خلال القرن . إذ أن هذا الاحتكار لم يسمح للجزائر أن تستفيد من المنافسة بين شركات الملاحة ، على الرغم من أن ذلك لم يحقق أي فائدة للفرنسي المتوسط في حياته ...

إن الامتياز لا يعود بالفائدة إلا على صاحبه ؛ وصاحب الامتياز ، بما أنه يعلم جيداً المناقضة الموجودة بين الصالح العام ومصلحته الخاصة ، لا يتورع عن استخدام أي وسيلة تعزز مصلحته ، كما يلاحظ ذلك تقرير المؤسسة الاقتصادية للتضامن الأوربي (مؤسسة السوق المشتركة) ؛ ولكن مهما يكن بتلك الوسيلة من تلوث ، بوجه عام فإنها تصبح أكثر تلوثاً في البلاد المستعمرة .

إننا نذكر تلك الحملة الصحافية التي قادتها صحيفة فرنسية سنة ١٩٣٨ ، من أجل أن تثبت للرأي العام الفرنسي ، الذي أبدى استياءه إزاء بعض أسعار الفواكه أو الخضراوات المستوردة من الجزائر ، أن غلاء تلك الأسعار ناتج عن بطء العامل الجزائري الذي يقوم بشحن البضاعة بالموانئ الجزائرية ، وكانت الصحيفة تريد أن تخفي بهذه الدعوة والدعاية الحقيقة البسيطة : وهي أن الأسعار ارتفعت بسبب احتكار الملاحة . ولم تتنازل هذه الصحيفة بطبيعة الحال إلى نشر التصحيح الذي وجهناه لها بهذا الصدد ، ومما يجب ملاحظته بهذه المناسبة هو أن النقابة الفرنسية لعمال الشحن لم تتقدم باحتجاج ، دفاعاً عن (الزملاء) الجزائريين أو عن مجرد الحقيقة ... فبقيت الوصمة لاصقة بالعمال الجزائريين في نظر الرأي العام الفرنسي .

---

(١) إن قانون (احتكار الراية) يقضي ألا تأتي واردات الجزائر ولا تذهب صادراتها إلا على السفن التي ترفع الراية الفرنسية .

وكان من الممكن في السنة نفسها أن نلاحظ ملاحظة أخرى ، تدل على الثقل الذي يضعه (احتكار الراية) على الحياة الجزائرية بصورة واقعية : لقد بدأ باعة لحم الخيل بفرنسا يستوردون بضاعتهم حية من الجزائر ، وكان في ذلك فرصة لتنشيط إنتاج من يقوم بتربية الخيل في الجزائر ، ومن ناحية أخرى لتعديل أسعار اللحم في السوق الفرنسية ، لمصلحة المستهلك الفرنسي .

إلا أنه ، لم يكن لتلك الفرصة الأثر الطبيعي في الاتجاهين المذكورين ، فقد امتصه احتكار الراية بتعديل خفي أتوماتيكي لأسعار النقل ، فقد جاء هذا التعديل يمتص بصورة رياضية الفائض بين أسعار فرنسا وأسعار الجزائر ، دون أن تستطيع هذه المرة صحيفة ما أن تتهم العمال الجزائريين بالبطء في العمل ... لأن الخيل تشحن نفسها بنفسها .

وليس في النفسية التي تسيطر على هذه التصرفات الغريبة كلها أي شيء يمت إلى المصلحة القومية ، لأنها كلها تضحي على حد سواء بمصلحة الشعب الفرنسي ومصلحة الشعب الجزائري .. إنها طبقة من الفنيين Technocratas ومن كبار المقاولين ، ومن بأيديهم إدارة الشركات الكبيرة ، تدير مباشرة أو بوسطاء تختلف درجاتهم ومناصبهم ، شؤون البلاد لمصلحتهم فقط .

وهكذا ندرك حقيقة ما يشير إليه تقرير المؤسسة الاقتصادية OEGE عندما يتكلم عن (اتفاقات مكشوفة أو ضمنية) ... كما ندرك إلى أي مؤامرات تنتهي أحياناً هذه الاتفاقات في بلد مستعمر ، يستهدف النظام الاقتصادي فيه التقليل من العمل وحط قيمته ؛ وهنا نلمس مناقضة غريبة ، لأن من طبيعة القليل أن ترتفع قيمته ؛ ولكن العبقرية الاستعمارية تستطيع قلب الواقع والإتيان بالمحرفات التي تحطم الحقائق وتصيرها هباءً منثوراً .

☆ ☆ ☆

من مؤتمر كولومبو إلى مؤتمر جنيف

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/٥/٧

إن الحوليات السياسية العالمية تسجل حدثاً جديداً في منتهى الأهمية ، ألا وهو اجتماع مؤتمرين دوليين في وقت واحد ، ويمثل كلاهما نزعة معينة تختلف عن النزعة الأخرى اختلافاً كاملاً ، بينما موضوعهما واحد .

ففي مدينة جنيف يجتمع الكبار « من أجل أن يتصرفوا في شعوب شرق جنوب آسيا ، طبقاً لتخطيطاتهم الستراتيجية ، ولمصالحهم الاقتصادية » .

وفي مدينة كولومبو يجتمع على أثر دعوة وجهها نهرو ، للرجال الذين يمثلون هذه الشعوب ، كي يؤكدوا على أن المشكلات التي تخصهم لا يمكن أن تحل في غيابهم ، ويصرخوا مرة أخرى بحق الشعوب في تقرير مصيرها .

وبالتالي ، فإن المشكلات هي هي في كلا المؤتمرين ، وإنما يريد أحدهما أن تكون حلولها ، كثيراً أو قليلاً ، في نطاق سياسة التطويق[1] . بينما يحاول الآخر حلها لتدعيم السلم في منطقة كانت ، قبل عشر سنوات ، البلاد المستعمرة .

إن هذه المنطقة تطابق ، في الواقع ، من الناحية الإيديولوجية مجال إشعاع الفكر الإسلامي وفكرة اللاعنف ، أي مجال إشعاع حضارتين : الحضارة الإسلامية والحضارة الهندوكية ، الحضارتان اللتان تختزنان أكبر ذخيرة روحية للإنسانية اليوم .

(١) السياسة التي أعلنها ج . ف . دالاس في أيامه .

فالتعارض بين المؤتمرين يكاد يستحيل تلافيه ، بقدر ما يستحيل التوفيق بين إرادة السلطة التي تحرك أحدهما ، وإرادة التحرر من الاستبداد التي تحرك الآخر .

وهذا التعارض لا يمكن فعلاً تلافيه ولا إخفاؤه بكلمات جوفاء ، الكلمات التي أفضى بها رئيس الحكومة الباكستانية في مؤتمر كولومبو ، حيث قال : « إنه لمن التبجح والرياء أن نوجه إلى الأمم الأخرى الدعوة إلى السلم ، بينما الخلافات السياسية والاختلافات النظرية التي تفرقنا لا زالت قائمة » .

إن هذا التصريح ، الموجه بكل وضوح ضد شخص نهرو ، ويعبر عما يسمى في اللسان الدارج (استفزازاً) وكأن صاحب هذا التصريح المستفِز (السيد محمد علي) ، كان يهدف إلى تعكير الجو في مؤتمر كولومبو ، حتى لا يصيب هذا المؤتمر هدفه الذي يختلف ، كما قلنا ، عن هدف المؤتمر الآخر الذي يتابع جلساته الآن على شاطئ بحيرة (الليمان) .

فهذه المناورة ، أو عملية الإجهاض هذه ، تبدو بوضوح أكبر عندما ننظر إليها في ضوء ما أفضى به رئيس حكومة سيلان ، إذ لفت نظر زملائه الممثلين لحكومات شرق جنوب آسيا ، إلى الخطر الذي يهدد تلك المنطقة بسبب وجود برميل البارود الذي تمثله الهند الصينية فيها .

ولماذا حينئذ هذا النشوز الغريب في موقف ممثل باكستان ؟ إن القضية تتصل في الواقع بتاريخ الوطن ، أو بالأحرى بتاريخ الجامعة الإسلامية .

إنه من مصلحة الاستعمار أن يخفي دائماً أبرع مشاريعه وراء مظاهر خلابة ، والجامعة الإسلامية كانت إحدى المشاريع لسحق المؤتمر الهندي العام ، ووسيلته المختارة لتمزيق كفاح الشعب في الهند ، وما كان هذا التمزيق ليحدث بمجرد قرار يصدره جلالة ملك إنجلترا ، ولكنه حدث باسم الإسلام ثم تحقق في صورة دولة باكستان ، وقد اشتقت هذه الكلمة نفسها من اسم الصحابي المشهور سلمان الفارسي ، الذي كان يلقب سلمان باك أي الصافي .

فباكستان هي إذن بلاد الصفا ، صفا الآغا خـان على سبيل المثـال ، الرجل الذي طرد من الهند نهائياً بسبب ما قدم من خدمات إلى الاستعمار ، والـذي تفتح له باكستان أبوابها هذه السنة ليقيم فيها حفلة عيده البلاتيني .

آه !... إن للجـلاوي[١] مستقبـلاً بـاهراً ... مـا دامت الشعـوب الإسـلامية تعطي ظـواهر الأشيـاء قـدراً أكبر من حقيقتهـا . لأن بـاكستـان ، في حقيقـة الأشياء ، لم تكن إلا الوسيلة التي أعدتها السياسة المعادية للإسلام التي تمتـاز بهـا ، بصورة تقليدية ، أوساط المحافظين الانجليز ، أعدتها من أجل إحداث الانشقاقـات المناسبة في جبهة كفاح الشعوب ضد الاضطهاد الاستعماري .

وليس من مجرد الصـدفـة أن الجبهـة العربيـة الآسيو يـة التي أسسهـا نهرو مع بعض قادة الجامعـة العربيـة قـد انشقت بكراتشي ، العـاصمـة التي تحلق في سمائهـا فكرة جناح ، كما سوف تنشق ، إن لم تنشق بعد ، ببغداد[٢] العـاصمـة التي تحلق في جوها فكرة لورانس .

وما النزعة (البـاكستـانيـة) في التخطيـط الاستعماري الخـاص بجنوب شرق آسيـا ، إلا الشيء الـذي يقـابـل في التخطيـط نفســه النزعـة الهـاشميــة في الشرق المتوسط .

قد نتساءل : لماذا استطاع الملايين من الباكستانيين أن يركنوا إلى وضع كهذا ؟.

إنه مكر يبلغ ذروته ، إذ استطاعت إنجلترا بهذه الطريقـة أن تترك الهنـد في حالة تمزق نهائي ، إذ لا يفرق بين المسلمين والهندوك حدود جغرافيـة لا تستطيع إنجلترا تلفيقهـا مهما كانت براعتهـا في التلفيــق ، ولكن يفرق بينهم حــدود من

---

(١) الجلاوي هو العميل الذي اتفق مع الاستعمار الفرنسي لخلع الملك محمد الخامس .
(٢) تحقق هذا التنبؤ في وقته .

الأحقاد ومن الـدمـاء ، ذهب ضحيتهـا الملايين من المسلمين ومن الهنـدوك ، كانوا ضحية المذبحة التي زجتهم فيها المخابرات الإنجليزية في الوقت المناسب .

ولقد رأت هذه الملايين من المسلمين ، بمقتضى وازع المحافظة على الحياة ، قـد رأت في باكستان أرض النجاة الموعودة ، كما رأت فيهـا الملايين من الهنـدوك أرض الحقد والعدوان ...

ولكن قد تكون للأقدار كرة ... وإذا بـالشعوب التي انخـدعت (بمحررين) مأجورين ، والتي خدرتها شعارات مخدرة ، ونومتها كلمـات جوفـاء لا يرى فيهـا سمة الاستعمار إلا ذلك الفاحص المتدرب ، وإذا بهذه الشعوب ترجع إلى رشدها .

فالانتخـابـات التي جرت أخيراً في البنغـال دلت على أن الجمـاهير الإسلاميـة بتلك المقاطعة لم تبق في خبل التخدير ، ولا تحت سلطة ذلـك المكر الـذي يخفي حقيقته وراء تذهيب غلاف وضع على وجهه عنوان (دستور قرآني) .

وليست هـذه المرة الاولى التي يرفـع فيهـا القرآن الكريم كي يخـدع بـه المسلمون ، إن معاوية استخدم هذه الخـديعـة في خصومتـه مع علي ، عنـدمـا رفع أصحابه القرآن الكريم على الرماح ، وهم يقولون في وجه أشياع علي : « هـذا حكم بيننا وبينكم » .

ولم ينخـدع علي حين قـال : «كلمـة حق يراد بهـا بـاطل » ، غير أن جمهـور المسلمين انخدع فعلاً حينئذٍ ، كي يسير التاريخ في الاتجاه الذي قدرته الأقدار .

ولكن بعـد ثلاثـة عشر قرنـاً ، نرى النزعـة التي تمثل عليـاً تنتصر على النزعـة الجاهلية ، تمثلها الحركة الإصلاحية في الجزائر .

إن للأقـدار كرة ... ومـا انتخـابـات البنغـال إلا إرهـاص نـدرك معنـاه في الصورة الرمزية التي نراها في العدد الأخير من مجلـة (إفريقيـا والشرق) ، حيث نرى صورة مسلم وهندوكي يتعانقان ...

☆ ☆ ☆

أقلام وأبواق الاستعمار

الشباب المسلم في ١٩٥٤/٥/١٤

يقال أحيانـاً (في الصحـافـة الاستعماريـة) إن للاستعمار قصـداً واستعـداداً حضارياً ، وقد يكون هذا صحيحاً إذا اعتبرنا الكلمـة بـالنسبـة لنوايـاه نحو نفسـه لا بـالنسبـة لنوايـاه نحو الآخرين . فنحن نعترف أن الاستعمار يستطيع أن يحضر نفسه ، إذا اتخذنا هذه الكلمة بالمعنى الـذي تضفيـه عليهـا حضـارة المـادة في القرن العشرين ، أي أنه يستطيع أن يحسن وسائله ويدقق خططه الاستعماريـة حسبـما تقتضيه الظروف .

إن جيل جـدودنـا الأقربين ، بـالجـزائر على سبيـل المثـال ، قـد أدرك عصر (الحاوي) الذي يخضع الثعبان لسحره ، فهو عصر البندير و (الفتة) الطرقية .

لقـد كان هـذا كافيـاً لاستعمار تلـك الجماهير التي غطت في سبـاتها الشتـوي قروناً ، قرون عصر ما بعد الموحدين ، فقد كانت هذه الوسـائل على الرغم ممـا بهـا من البساطة ، في مستوى ذلك الوسط البسيط القابل للاستعمار .

ولكن هذا الوسط الخـامل قـد بـدأ فجـأة يتحرك ، كأنمـا شحنـة كهربـائيـة أفرغت في شعوره ، ثم بدأت رعشة تحدث على سطح ضميره الهـادئ الـذي غـط في النوم منذ عهد طويل .. تحدث تموجات خفيفة .

وكان ذلك في عصر آبائنـا الـذين سمعوا بصورة غـامضـة ، كلامـاً عن جمـال الدين الأفغاني ، الـذي انتقلت فكرتـه من فم إلى أذن حتى وردت الضمير الجزائري فأحدثت على سطحه الهادئ تلك التموجات ...

لقد كانت هذه الرعشة تدل على الحياة في عالم الموت ، وصرخة تعلو في عالم الصمت و (خطراً) في عالم الاستعمار !!

وشعر الاستعمار فعلاً بالخطر فأخرج من محفظته رجلاً تأخذه من حين إلى حين الحالة الصوفية ، أخرجه كي يجدد به عصر الدراويش .

فكان المنظر جذاباً يلفت نظر الشعب البسيط ، المتعطش لخوارق المعجزات ، فيأتي بنقوده يقدمها نذوراً عندما يدق البندير .

وفكر الرجل الذي تأخذه الحالة الصوفية كي يزيد تأثيره على مشاعر الشعب البسيط ، فوضع حوله حلقة من (العلماء) يتقبلون تبرعات البسطاء ، ويباركون هؤلاء البسطاء المتعطشين للمعجزات .

فكان ذلك عصر الشيخ (بن علاوة) ، ورفقائه أمثال الشيخ الحافظي ...

ولكن الفكرة استمرت في طريقها مثابرة مثابرة في عالم لا زال في خدر النوم ، حيث كان آباؤنا يعيشون ، فلم تستطع البنادير والشطحات الصوفية ، أن تبعث عهد المرابطين من جديد .

وكما يقول المثل الجزائري : « فعندما يتمزق البندير ، تتفرق حلقة المداحين » ولكن يجدر بنا أن نضيف : أن الجماهير أيضاً تتفرق حينئذٍ .

وذهبت فعلاً الجماهير المتفرقة إلى حيث يدعوها واجبها ، فأخرج حينئذٍ الاستعمار من محفظته وثناً يتكلم كلاماً خلاباً ... كي يلفت الأنظار عن الفكرة .

ولم يصبح حينئذٍ الحديث عن الواجبات ، ولكن عن الحقوق التي (تؤخذ) عندما نمد أيدينا ... إلى القمر ... مثلاً .

وهكذا انتهى عصر آبائنا وبدأ عصر ... وعلى بابه شيء كرمز اليد الممدودة إلى القمر !

ولكن الفكرة استمرت جادة في طريقها وفي عملها ، وانتهت الجماهير المنومة ، التي نومتها الأوثان ، فانتهت في مصر مثلاً[1] ، إلى أن التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق ، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة ،الواجبات الخاصة بكل يوم ، بكل ساعة ، بكل دقيقة ، لا في معناها المعقد ، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء ، وشعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة .

ولكن الفكرة استمرت في طريقها أيضاً ، وقد رأينا منذ ثلاث سنوات فئة من الشباب في إحدى ضواحي العاصمة الجزائرية تدخل مباشرة حلبة التاريخ ... دون أن تنتظر الساعات الخطيرة ، واللحظات الكبيرة والظروف الخيالية ، فدخلت ميدان العمل بكل بساطة وتواضع ، والمعول بأيديها كي تشق طريقها ، طريقاً بسيطاً متواضعاً بضاحية (القديس سان أوجين) .

وربما لم يكن هؤلاء الشبان يعلمون أن دخولهم في ميدان العمل هو الساعة الخطيرة التي يخشاها الاستعمار واللحظة الكبيرة في تاريخ الجزائر ؛ ومهما يكن الأمر ، فها هي ذي الفكرة تستمر في الطريق ـ وكأن طريقها يمر يومئذٍ بناحية (القديس سان أوجين) ، ـ حتى شعر الاستعمار فعلاً بالخطر . وفكر في إيقاف الفكرة الخطيرة عند حدها ... ففتح محفظته مرة أخرى وأخرج منها أشياء كثيرة مسلية ، لتسلية الجماهير عن واجباتها ، وأخرج آلات ميكانيكية تتكلم عن (تقاليد الإسلام) مثل الكتاني والجلاوي ، ومن بين الآلات ما يتكلم عن السياسة فيعرضها الاستعمار في المعارض الانتخابية تحت اسم (النواب الأحرار) .

---

(١) إشارة إلى ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣

ثم يخرج من محفظته آلات أكثر تعقيداً ... تلفظ بخطب وطنية : تقدم هذه الآلات للجماهير المنخدعة ، كي تلهيها وتمسكها بعيداً عن ساحة الواجبات والعمل ، تقدم في صورة أوثان مزينة مجهزة لتأخذ الأبصار وتذهل الألباب . ولكن الجماهير بدأت تشعر بالفتور نحو هذه الألاعيب والأكاذيب والآلات ، وبدأت تلتفت عنها ... باحثة عن أشياء أخرى ، وعن عمل أجدى من أن تبقي يدها ممدودة نحو ... القمر .

وها إن الاستعمار يشعر بأكبر خطر ، ويلجأ إلى آخر وسيلة عنده ، يلجأ للمرة الأخيرة إلى محفظته فيخرج منها أرَضَةً قد امتلأ بطنها من غبار تاريخ عصر ما بعد الموحدين عصر الانحطاط ، لقد امتلأت من هذا الانحطاط وأصبحت تلقي منه في كل جشأ تكتبه أو تقوله .

إننا نرى هذه الأرَضَة تحت ملامح الطالب الجاد ، نراها جادة في الانحطاط على مدرج كلية ، جادة في تحضير مؤهلات (النائب الحر)[1] .

وقد يكفي للحصول على هذه المؤهلات أن يكون للطالب قلم حسن أو بوق جيد في التعبير عن رغبات الاستعمار وأفكاره . إن الاستعمار الذي كان يقتنع بمن يعبر عن رغباته بلغة الصعاليك ، أصبح في حاجة إلى من يعبر عنها بلغة تقرب إلى الفصحى ، وهذه الحاجة الجديدة التي يشعر بها الاستعمار ، تشهد على أنه يستطيع أن يتحضر وإن لم يكن مستعداً لتحضير غيره .

تعليق

إنه يجب أن نعلق على هذا المقال بأن الاستعمار لا زال في حاجة إلى أقلام يكتب بها ، وإلى أبواق يتكلم بها ، حتى لا يُعرف خطه ولا صوته عندما يخادع

(١) هذا لقب النواب الذين تعينهم السلطات الاستعمارية للنيابة عن الشعب الجزائري في المجالس المنتخبة .

الجماهير الطيبة ، وهذا يعني أن الأَرَضَةَ المتعلمة لا زالت منتشرة في البلاد الإسلامية على وجه العموم ، وقد عرفنا منها أصنافاً بالجزائر على وجه الخصوص .

إن هذا النوع من الحشرات لا ينقطع ما دامت ثقافتنا تفقد المبدأ الأخلاقي المهين على سلوك المثقفين .

ولا زال الاستعمار يستخدم فعلاً هذه الحشرات المدسوسة في صفوف الطلبة لمهمات معينة حسب الظروف .

وقد بلغني على وجه المثال أن بعض هذه الأبواق المختارة لإذاعة أنباء الاستعمار ، شرعت تذيع بين صفوف الطلبة الجزائريين أن مالك بن نبي رجل انعزل في برجه العاجي عن الثورة الجزائرية ولم يسهم فيها بشيء .

ومن طبيعة الحشرات ألا تحقق مهماتها ، كما أن الأبواق لا تتحرى فيما تذيع ، وإلا فإن كل طالب جزائري يعلم أنني نشرت بوسائلي الخاصة (دون أي تأييد مادي أو معنوي) ما هو مسجل في إنتاجي الفكري منذ حضوري القاهرة مثل رسالة (النجدة !! الشعب الجزائري يباد) .

وبالإضافة إلى هذا فإنني بمجرد وصولي إلى القاهرة وضعت نفسي تحت تصرف من يتكلم باسم الثورة الجزائرية ، ولم أقتنع بالعرض الشفاهي ، بل كتبت إلى المسؤولين هذا الخطاب الذي أترجمه بالحرف :

القاهرة في ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٦

إلى السادة ممثلي جبهة التحرير الجزائري

بالقاهرة

إنني حضرت إلى القاهرة للقيام بواجبين :

أحـدهمـا يخص مهمتي كاتبـاً يريـد نشر كتـابـه (الفكرة الإفريقيـة ـ الآسيوية) ، وقد يدلكم عنوانه عن صلته بالقضية الجزائرية ، سواء اعتبرناهـا من الناحية الداخلية (توجيهات تخص الكفاح) أو من النـاحيـة الخـارجيـة (كنشر هذه القضية في المجال الدولي) .

وبخصوص هذا الواجب فقد قمت به بالقدر المستطـاع ، قيـامـاً وضعت معـه كتـابي في أيـدي من سيعنى بنشره ، حتى إنني أعـد نفسي متحرراً في المستقبـل من مسؤولية هذا النشر .

وأما الواجب الثاني الذي حضرت من أجله إلى القاهرة ، فهو يتعلق بشخصي بصفتي جزائريـاً أسهم في الكفـاح ضـد الاستعمار منـذ ربع قرن ، ويـأتي الآن كي يواصل هذا الكفاح تحت راية الثورة الجزائرية .

وأعتقـد أنني إذا وجهت داخـل الجـزائر بصفتي ممرضـاً عسكريـاً في جبهـة القتـال ، أستطيع في الوقت نفسـه أن أقوم بكتـابـة تـاريخ الثورة الجزائريـة على طريق المشاهدة تقريباً .

كما أعتقد أنه يفيد أن أوجه بهذه المناسبة خطـابـاً مفتوحـاً إلى رئيس الوزراء الفرنسي[1] ، حتى يعلم ما هي الأسبـاب الإنسـانيـة التي تـدفع بكاتب جزائري في المعركة .

وتقبلوا تحياتي

مالك بن نبي

وقد يتساءل الآن القارئ لماذا لم يأتني رد ؟

فربما اعتقد المسؤولون أن الثورة الجزائريـة ليست في حـاجـة إلى تطوعي ، وربما فكروا أن مؤهلاتي ليست كافية ، وربما ..

---

(١) سلمت فعلاً لأحـد المسؤولين خطـابـاً مـوجهـاً إلى (جي مـولي) كي يـذاع مـع نشرات جبهـة التحرير بالقاهرة .

رجل ووجهان

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/١/٢٤

إننا في انتظار مؤتمر دولي وشيك ، يبدو أن جدول أعماله سيتضمن مسبقاً قضية السلم في العالم ، ودراسة الوضع الجديد فيه ، الوضع الذي ينتظر أن يجد فيه كل واحد ـ فرداً أو شعباً ـ نصيبه من السعادة الأرضية .

ومن الطبيعي أن ظروفاً كهذه ، تنصب أمام عيوننا موضوع تأمل يتناسب مع الملابسة الحالية .

ولكن يبدو أن الإنسان المستعمَر لا تستهويه أطياف التأمل الجذاب ولا تستدرجه للخوض في قضية السلم والحرب ، بما يرى لهذه القضية ـ من الناحية السياسية على وجه الخصوص ـ من سمات تجعلها قضية برجوازية ... نعم ، إنها تهم الضمير الإنساني على الإطلاق كيفما كان الحال ، ولكنها تأخذ ما لها من نتوء في لندن أو موسكو أو واشنطن ، أي في كل بلد يجد أهله في حوزتهم السمن مع المدفع في وقت واحد[١] .

بينما لا يجد الشعب الجزائري أمام نظره مدفعاً سوى مدافع الاستعمار ، أما فيما يخص السمن فاسألوا ٩٥٪ من العائلات الجزائرية ، إنها لم تعد تتذكر طعمه منذ زمن .

وفي جملة واحدة ، فنحن نكون طبقة المنبوذين أو الصعاليك الذين

---

(١) إن هذه العبارة (السمن والمدفع) كانت شعار السياسة الألمانية في عصر هتلر .

لا يعترف لهم البرجوازيون ـ الذين بيدهم السمن والمدفع ـ بحق النظر في الأشياء ، عندما يتكلمون في مصالح هذا العالم الذي يملكون فيه كل شيء : هذه الأنابيب للبترول ، وهذا المنجم للأورانيوم ، وتلك القاعدة الحربية للطيران ...

ولكن عندما نراهم يتكلمون عن الحرية ـ تلك العذراء المتمردة التي تستهوي قلوبنا ـ فإننا نشعر برعشة في أحشائنا ، تأخذنا كما تأخذنا رعشة الاستياء عندما نشاهد منكراً .

إن الشعوب المستعمَرة تؤمن بالحرية ، ولها حساسية كبيرة لدى هذه العقيدة الثمينة ، العقيدة التي لم يستأصلها من روحها قرنان كاملان من هذه (الحضارة) الاستعمارية .

ولكن هذه الشعوب المرتبطة ، بمقتضى واقعها السياسي أو الجغرافي ، بما يسمى (العالم الحر) ، لا تدري عندما يتكلم قادة العالم عن الحرية ، هل هذه السخرية اللاذعة ، سخرية الأقدار أم سخرية العباد .

ولا نجد مفراً من تأويل الأشياء على هذا النحو أم على ذاك ، عندما نرى تصريحات لبعض الشخصيات البارزة ، مثل التصريح الذي أفضى به إلى مراسل صحيفة ألمانية من ميونخ ، المستر وينستون تشرشل ، عندما تحدث عن (مهمته الأخيرة) وقال : « إنني أحاول تلافي التوتر العالمي ، وتمهيد السبل إلى السلم والحرية » .

ولا شك أنها مهمة ورسالة في مستوى ذلك (الضرو البارز)[1] ـ كما يسميه موريــاك ـ ذلك الضِرو الذي وضع على وجه العالم الذي صنعته الحربان العالميتان ، وصمة مخلبه الجبار .

ولكن .. أليس لهذا المخلب أثره أيضاً في مصير شعوب مستعمَرة لا زالت تسلب حرياتها الأساسية ؟.

---

(١) الضِرو : كل ضارٍ مفترس .

إننـا لا نـدعي أن شخصيـة من الطراز الأول ومعقـدة إلى حـد كبير ، مثـل شخصية القطب الانجليزي ، يجب عليها أن تتبسط لمجرد ألا يؤذي تعقدها أذواقنـا وألا يجرح حسـاسيتنـا ، ولكننـا في الوقت نفسـه لا ننتظر أن نجـد فيهـا جوانب تتعارض كلياً وتتناقض تناقضاً يجعلنا نتصور من خلال كلامهـا عن (الحريـة) ، أنها تتكلم عن مسرحيتين ، بلغة رجلين .

إنـه لا يـوجـد في أصغر قريـة من قرى أوربـا الغربيـة من لا تبقى عنـده تلـك الذكرى المؤثرة فيه أيام الحرب ، عندما كان يرى حرف (V) مكتوباً على الجدران[1] .

ولم يبق طفل أوربي أو يهودي ، لم يكتب هذا الحرف على جـدران قريتـه . ولم يـذكر في الوقت نفسـه ، ذلـك الرجـل (أبـا النصر) الـذي خلـده ، لأنـه في ساعات الظلام الحالك في خضم المعركة ، قـد تمثل في شخصـه كفـاح التحرير من أجل حرية الملايين من البشر .

ولكن العالم لا زال يعيش على أحر من الجمر المأسـاة الاستعماريـة ، ولا يمكن أن نعيش فيه دون أن نعقد تلقائياً بعض الموازنات التي تتبادر إلى الذهن .

فعندما يتكلم المستر تشرشل (أبو النصر) عن (الحريـة) كما تكلم في حـديثـه مـع الصحـافي الألمـاني ، فـإننـا لا نستطيـع في هـذه الأيـام أن ننسى مصير (المـاو ـ مـاو) الـذين سلبـوا في خطـوة أولى في سبيـل (الحضـارة) أراضيهم الخصبة ، والذين يقصد بهم ، في خطوة ثانية ، التنكيل والإبادة .

كما لا ننسى أيضاً في هـذه الأيـام مـا يتجرع أهـالي الملايـو من طعم (السلم والحريـة) ، تحت مطر من القنـابل التي تلقيهـا على قراهم أسراب القوات الجويـة الإنجليزية .

---

(١) كان هـذا الحرف يكتب تحدياً للجيش الألمـاني المحتل ، وتفاؤلاً لأنـه الحرف الأول من كلمـة Victory النصر ، وكان مستر تشرشل يصوره بأصبعيه في كل مناسبة .

وهل نستطيع أن ننسى أن هذا (المخلب) الذي يريد وضع وصمته على العهد الجديد ، كذكرى تذكرها الأجيال المقبلة ، أنه هو (المخلب) الذي أعدم بجرة قلم دستور (الجوبيانه) ، أي جميع الحريات التي يضمنها لشعبها .

لقد وددنا لو استطعنا أن نوحد فكرنا ، حتى نرى في المأساة الإنسانية مأساة واحدة ، وفي شخص المستر تشرشل شخصاً واحداً : رجل التحرير .

ولكن الواقع يضطرنا ، بكل أسف ، أن نرى مأساة أخرى تعيشها الشعوب المستعمَرة ، ووجهاً آخر لمستر تشرشل تعرفه تلك الشعوب : وجه المستعمر .

بصيص الأمل

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/٥/٢٨

لقد استفاد العلم من ظاهرة (استمرار الرؤية) التي تجعلنا نبصر شيئاً ، ولو لحظة ، بعد أن يكون قد فقد من الناحية النظرية ما يجعله مرئياً ؛ لقد استفاد العلم من هذه الخاصية البصرية المبدأ الذي أسس عليه فن السينما وفن التنوير بالتيار المذبذب ، كما استفاد منها في بعض الطرق لفحص الأجهزة المتحركة ، لفحص الحالة الميكانيكية للمواد المركَّبة منها تلك الأجهزة لدراسة التغيرات التي تحدث فيها أثناء الحركة .

وميزة هذه الطرق كلها ، هي أنها تستطيع ، أن تتيح دراسة الأشياء المتحركة كما لو كانت ، في ظاهر الأمر ساكنة تماماً .

وإنني أعتقد أن هذه الطرق قد تفيد أو تغري بالفائدة في دراسة الواقع الاجتماعي ، أي إنها تتيح دراسته كما لو كان مستقلاً عن الاطراد ، وكامناً في سكون مطلق وفي زمن جامد .

إن هذا سيكون بطبيعة الحال لعِباً غريباً ، لأنه سيضفي على حياة الأفراد والشعوب ما يجعلها كتلة جامدة لا يعتريها تغير . وهذا اللعب سيعطينا عن الحياة ، الشعور الغريب بأنها مفروضة على نفسها كما هي من دون تغير ممكن ، ولا تطور متوقع .

وهذه الطريقة ، لو طبقت في السياسة سيكون لها من الأنصار كل من يهتم بتجميد حياة البشر ، أو بإظهار جمودها على الأقل ، أي كل من يتمسك في السياسة بمبدأ (الاستمرار) ومبدأ (التقليد) .

كما سيكون لها ضحايا ، كلما فرضت سلطة أجنبية على مصير العباد ، وتعالت صرخة لتاريخ الشعوب كلمة يوشع : « يا شمس ! قفي » !!

فكما سيكون لهذه الطريقة أنصار يطبقونها لمصلحتهم وضحايا تطبق على حسابهم ، قد يكون لها ضحايا أخرى في مستوى الفهم للأشياء ، أولئك الذين يغترون بظاهرها في أقوالهم وفيما يكتبون .

وقد كان فكرنا مع هؤلاء المغتربين ، عندما كنا نطالع ذلك العدد من (فرانس أو بسير فاتور) حيث كتب مراسل هذه الصحيفة بطهران ، نبذة قصيرة عن الوضع بعد أن أخذ الجنرال زاهدي بزمام الأمور بإيران ، فقال هذا المراسل : « إن بصيص الأمل الذي أتى به الدكتور مصدق قد انطفأ » .

فهذه الخاطرة ، هي دون شك نتيجة انفعال المراسل المذكور تحت تأثير الظاهرة التي أشرنا إليها ، يبدو وكأنه يفحص الحالة الاجتماعية والسياسية بإيران ، في حالتين معينتين ، نكون ـ إذا وصلنا بينهما على شاشة التاريخ دون اعتبار ما يفصل بينهما في الواقع ـ نكون قد أعطينا فكرة غير صحيحة عن الوضع هناك ، أي فكرة مقتضبة تعبر عن حالة نرى فيها شخصاً معيناً ، اسمه رزمارة[1] ، يعقبه (رزمارة) آخر اسمه زاهدي ..

إن ظاهرة (استمرار الرؤية) التي أشرنا إليها ، قد ألغت في نظر مراسل الصحيفة الباريسية الفاصل الضخم الذي أحدثه الدكتور مصدق في تاريخ بلاده ، كأنما هذا البلد العريق البشوش استمر منذ خمس سنوات في طريقه العتيق ، وناي (حفيز) بين إصبعيه ورباعيات الخيام على شفتيه ، وهو يسد أذنيه كي لا يسمع ذلك الضجيج المحموم ، المتصاعد في سماء عبادان ، ويسد أنفه كي

(١) رزمارة هو رئيس الحكومة الإقطاعي الذي وقع عليه انقلاب الدكتور مصدق . وزاهدي الجنرال الذي قام بانقلاب على مصدق .

لا يشم رائحة البترول ، عندما يعرج طريقه المفروش بالزرابي المبثوثة وبالزهور المنثورة ، فيكون على مقربة من المملكة التي تحركها الحمى ، ويرفع صولجانها من بيده مصالح شركة AOIC[1] .

ومن ذا الجريء الذي يدعي أن الشعب الإيراني يريد أن يستنشق رائحة بتروله المنعشة أو أنه يريد تأميم إنتاجه ، أو أنه يريد أن يكون صولجان الحكم بيده هو ؟.

هل صحيح أن (بصيص الأمل) قد انطفأ لأن مصدق أصبح سجيناً ؟ وأن فاطمي خرَّ تحت خنجر المجرمين ؟ وأن قصتهما ما كانت إلا حلماً انفلت من عالم النوم ؟

من هو (الوهم) ومن هو (الحقيقة) ، بين زاهدي ومصدق ؟.

إن الأول هو صورة (الاستمرار) : الصورة المزدوجة والملعونة للاستعمار والقابلية للاستعمار ، والدليل المحسوس الذي يبرهن به على أن « الإسلام عالم اللاحركة » والذي يجب تحريكه وتحضيره .

أما الثاني ، مصدق ، فهو حركة وطن مركزة في رجل ، وهو صوت تطوره ، وهو إرادته كيما يكون في التاريخ هو نفسه ، أن يتحقق بذاته .

أين الحقيقة ؟ وأين الوهم ؟

نعم ، إنه من البين ـ لو حكمنا منطق مسيو دولا باليس[2] ـ لو جردنا الأشياء من الحركة ومن أسبابها ، لم تبق إلا حقيقة واحدة ، حقيقة عالم ساكن لا (أمس) فيه ولا (غد) ، فلو أننا قبضنا على عجلة التاريخ في إيران ، وأوقفناه

---

(١) شركة البترول الأنجلو ـ إيرانية .

(٢) رجل اشتهر بأقوال تشبه « إن السماء فوقنا والأرض تحتنا » .

في يوم زاهدي ، وهو كما بينا لا يختلف في شيء عن يوم (رزمارة) ، وقصرنا ملاحظتنا بتوقيف الزمن والحركة ، على هذين اليومين بقطع النظر عن الفترة التي بينهما فإننا سنشعر أن تلك العجلة لم تدر منذ خمس سنوات ، وأن شيئاً لم يتغير في هذه الفترة في طهران .

أوليس الأمر يبدو كذلك بدمشق ؟ ، حيث لو أننا أوقفنا عجلة التاريخ فترة معينة ، لوجدنا أن رجلاً اسمه (الأتاسي) قد خلفه رجل اسمه الأتاسي ، كما خلف زاهدي رزمارة بطهران وفي الظروف نفسها ... حتى إننا لو عممنا هذه الملاحظات المقتضبة لقطعنا بأن الإسلام « هو العالم الذي لا يتحرك فيه شيء » .

وعندما نرفع هذا الحكم المغامر إلى مستوى حكم آخر قدمناه بصفته مسلَّمة بنينا عليها كتاب (وجهة العالم الإسلامي) ، حيث رأينا في كارثة فلسطين الحدث الجوهري الذي يؤثر ، في المستقبل في تحديد تلك (الوجهة) ، سنجد أنفسنا مضطرين ، نظراً إلى الأحداث الأخيرة التي جرت بإيران وبسورية ، إلى أن نتساءل هل تبقى قيمة لمسلمتنا ؟

إن الجواب على هذا السؤال يفصل في سؤال آخر سبق ، عندما تساءلنا : هل شخص الدكتور مصدق يمثل في تاريخ بلاده حقيقة تتصل بواقعها ، أم مجرد (وهم) ؟

إن عودة الأتاسي إلى منبر السياسة ، وعودة رزمارة ممثلاً في شخص زاهدي ، قد تدفعنا إلى الاعتقاد بأن صدمة فلسطين قد انتهى دويها أو قد انخفض في البلاد الإسلامية انخفاضاً تشعرنا معه بأن هذه البلاد تمر بلحظة سكون في تطورها ، أو بلحظة نكسة ، كأنها تنزع للرجوع إلى الحالة التي كانت عليها هذه البلاد قبل الكارثة .

ولكن النظرة الفاحصة تدل على غير ذلك : إن الفترة الحاضرة ليست إلا

لحظة من تاريخ تلك البلاد ، اللحظة التي تساوت فيها القوات الرجعية المسلطة من الخارج ، والقوات الدافعة المنبعثة من الداخل ، أي من صميم واقع تلك البلاد .

إنها الفترة التي يحاول فيها الاستعمار محاولة يائسة ، عن شعور أو غير شعور ، ليستعيد سلطاته في المستعمرات ، مع مساعدة القابلية للاستعمار التي تمثل في شخص (باؤ داي) على سبيل المثال ؛ وهذه المحاولة هي التي تطبع المرحلة التطورية الحاضرة في العالم الإسلامي بشيء من التردد بين مواقف متعارضة ، حتى نراه أحياناً يعود أدراجه إلى موقف سابق عندما نرى زاهدي يخلف رزمارة ، كأنما مصدق لم يوجد .

ولكن هذه الصورة هي (الوهم) أو (المظهر) لأن حقيقة التاريخ شيء آخر ، فهي منوطة بنفسية وإرادة شعب ، لا بمغامرات فرد وشهواته .

إن الشيء الذي يصنع تاريخ شعب ، هو ما في نفسه من استعدادات ، لا كمية النقود الأجنبية التي تتقاضاها حكومته .

وهذا هو السبب الذي يجعلنا ، على الرغم من الظواهر التي خدعت مراسل الصحيفة الباريسية ، نبقى واثقين أن (بصيص الأمل) الذي جاء به مصدق ، لن ينطفئ وأن كارثة فلسطين لم تفقد أثرها التوجيهي على تاريخ العالم الإسلامي الحديث .

الفصل الثالث

في الحقل الاجتماعي

- من أجل إصلاح التراب الجزائري
- قضية المرأة المسلمة
- تهور أم تطور
- ضرورة مؤتمر جزائري لتوجيه العمل
- تفاهات جزائرية
- باعة الحضارة
- ثمن حضارتنا

من أجل إصلاح التراب الجزائري

الجمهورية الجزائرية في ٣٠ / ٤ / ١٩٥٤

لقد قرأنا في جريدة (الفيجارو) مقالتين لمسيو (انجلهرد) ، تثري بصفة محسوسة معلوماتنا عن مشكلة التراب .

لقد نعلم أن هذه المشكلة قائمة في الشمال الإفريقي بصفة خاصة ، وأنني وضعت ـ فيما يخصني ـ مصطلحاً لهذه المشكلة أعتقد أنه يعبر عن جوهرها بكلمة Saharisation (أو مصير التراب إلى الصحراء) .

ولكن المسيو (أنجلهرد) يعمم هذه النظرية ، تعميماً يضع معه الظاهرة التي نشير إليها في الشمال الإفريقي ، في نطاق ظاهرة عالمية تتصل منذ القدم بفناء الحضارات ، عندما يفقد التراب العناصر اللازمة للحياة بسبب (érosion) التآكل .

وكأن هذه المعلومات تأتي ، في عبارة في منتهى الوضوح ، غداة التجارب النووية التي ألقت أضواءها الرهيبة على الجانب السياسي والعلمي في مأساة زماننا ، لتؤكد في تلك المأساة جانباً طبيعياً وكونياً ، وتكشف لنا دور الإنسان إزاء هذا الجانب الطبيعي : دور (تلميذ الساحر) الذي يطلق عن علم أو غير علم ، عنان بعض طاقات الطبيعة ، ثم يفقد التصرف فيها .

وقد يبدو في ضوء المعلومات التي اكتسبناها من المسيو (أنجلهرد) أن بعض الإجراءات ـ مثل قطع الأشجار ونزع قشرة النبات الطبيعي على وجه الأرض ـ

تؤدي إلى اختلال التوازن الموجود في ذلك المركب الطبيعي ـ من شجر ونبات وتراب ـ الذي يكوّن الشرط الأساسي لحياة البشر ، ولحياة الحضارة بصورة خاصة .

وعندما يحدث هذا الخلل في المركب الطبيعي المذكور ، فإن الرياح والمياه تبتدئ عمل التخريب ، تلك المأساة التي تنتهي بموت التراب ، وتترك شعباً بدون خبز .

والمسيو (أنجلهرد) يذكرنا أن القارات في طريقها إلى الذوبان مثل قطعة سكر في الماء ، ويذكر أرقاماً في منتهى الدلالة : ففي إيطاليا على سبيل المثال ، نرى أن نهر (البو) يلقي وحده في الأدرياتيكي أكثر من أربعين مليون طناً من التراب سنوياً ، أي مساحة مئة وأربعين كيلو متراً مربعاً . وفي أميركا ، حيث يبدو أن هذه الظاهرة بدأت مفعولها حوالي سنة ١٨٩٠ ، على أثر الإجراءات الزراعية الكبيرة التي أجريت في المناطق الغربية ، فإن أثرها بلغ أوجه حوالي سنة ١٩٢٠ ، وكان تخريب الرياح بالمقدار الذي جعل مزارعاً من (التكساس) يعبر عن المأساة (بنكتة) ، فيقول : إنني أرى (عزب) منطقة الأكلاهومة تطير فوق رأسي ، فمن الصبح إلى الآن قد غرق منها أكثر من مئة عزبة في خليج المكسيك .

وقد تتأكد خطورة المشكلة في نظرنا ، إذا ماعقدنا الموازنة بين الأرقام التي تدل على نقصان الأرض الصالحة للزراعة ، والتي تدل على زيادة السكان في العالم . وقد تتضمن هذه المناقضة كل مشكلات العالم الاجتماعية والسياسية المقبلة . وفيما يخص الشمال الإفريقي ، فإن هذه المشكلات قائمة منذ الآن ، وقائمة بالحدة التي تكون عليها الأشياء عندما لاتصبح المصلحة العليا ـ مصلحة الشعب ـ مقدمة على المصالح الخاصة ، إذ أنه كلما كانت الأولوية للمصلحة العليا ، فإن أعمال أولي الأمر تتصف بتلك الأولية حتى لا يبلغ السيل الزبى .

فأولو الأمر في أميركا ، مثلاً ، بعد أن قاموا بأعمال تؤدي إلى اختلال التوازن الطبيعي الذي ذكرناه ، قد تداركوا الأمر في الوقت المناسب وضربوا لنا مثلاً قد نخطئ إن لم نحتذه .

والاتحادالسوفييتي أيضاً واجه هذه المشكلة ، منذ عهد القياصرة ، إذ على أثر أزمة جفاف لم يسبق له مثيل ، اهتمت السلطات بالموضوع ، وعينت حوالي عام ١٨٩٢ ، العالم (دوكتشايف) لدراسته ، فأسس هذا العالم الروسي معهداً علمياً من أجل ذلك ، معهداً ولد فيه علم جديد (Pèdologie) أي علم تكوين التراب .

ولا شك أن تأسيس المصلحة التي تقوم بإصلاح التراب بالجزائر ، تلبي ضرورة حيوية في البلاد ، ولكن نجاحها في مهمتها ـ وهي تعويض الأشجار والغابات التي قطعت ـ لا يتم إلا بقدر ما تعيد ذلك التوازن الطبيعي الذي أشرنا إليه ، بينما لا نرى أن السلطات التي بيدها الأمر تقاوم كما ينبغي عوامل التخريب للتراب الذي تستهدف إصلاحه .

إن الصحافة قد نوهت ، منذ بضعة أشهر ، بما حدث في ناحية مدينة (باتنة) حيث إن ما يقرب من عشرين ألف شجرة قد قطعت بموافقة بعض ممثلي إدارة المياه والغابات .

ولم يبلغ إلى علمنا أن السلطات قامت بأي تحر لتحديد المسؤوليات في هذه القضية .

حتى إن الحالة التي تواجهها مصلحة إصلاح التراب بوسائل ربما ليست كافية بالنسبة لاتساع الرتق ، قد تزيد تفاقماً وتصبح تلك الوسائل مضحكة ، إذا ما زادت الأعمال التخريبية التي نشير إليها في خطورة الحالة .

ومما يزيد في هذه الخطورة ، هو أن المسؤولين يقررون موقفهم إزاء

القضية ، على مبدأ أن المسلم هو المسؤول عن الخلل الذي حدث في توازن العناصر الفعالة ـ شجر ، نبات . تراب ـ في صلاحية التراب للزراعة بالشمال الإفريقي .

وقد نعلم الأعمال الاضطهادية التي تعرض لها الشعب الجزائري بسبب هذا المبدأ ، عندما يطبق في صورة قانون المسؤولية الجماعية .

وقد نجد أثر هذا الرأي الرسمي حتى في وجهة نظر المسيو (أنجلهرد) ذاته ، كما يبدو من خلال أحد التفاصيل التاريخية التي تتناولها دراسته ، فمن بين الأسباب التي أضرت بمنطقة الغابات الموجودة بأوربا الجنوبية ، يذكر صناعة السفن الخشبية في ذلك العصر ، ويذكر معها العرب الفاتحين .

والغريب في الأمر : أن المسيو (أنجلهرد) ، عندما يذكر العرب من بين أسباب تخريب الغابات بجنوب أوربا ، يقع في مناقضة دون أن يشعر بذلك ، عندما يعترف من ناحية أخرى بأن شبه الجزيرة الأبيرية (أي بلاد إسبانية والبرتغال) التي تتسم اليوم بمظهر القحط الخاص بالمناطق الجبلية العارية من الأشجار ، كان ترابها يغذي ثلاثين مليوناً من السكان في عصر الخليفة عبد الرحمن .

وإذا كان هذا الخطأ الذي وقع فيه هذا الاختصاصي المحترم من الأخطاء التي ربما لانقدرها من الناحية الأخلاقية (بصفتها مناقضة للحقيقة) أو من الناحية التاريخية (بصفتها مناقضة للواقع) ، فإننا لانستطيع أن نزهد في أثره من ناحية سيكولوجية الإدارة ، إذ يصبح هذا الخطأ القناع الذي يخفي الحقيقة بالنسبة إلى مايحدث اليوم من تخريب في شبكة الغابات الموجودة بالجزائر، ويعطي المسوغات التي يقدمها أصحاب هذا التخريب الحقيقيين ، كما يقدم للمسؤولين ما يعفيهم مسبقاً من المسؤولية ، حتى إنه ينشأ من هذا الخطأ أكبر صعوبة تقف في وجه مشروع إصلاح التراب بالجزائر ، ذلك المشروع الذي يلاقي من الآن

الصعوبات التي، يلاقيها بمقتضى وسائل قليلة ومهمات كبيرة ، في بلد لم يستيقظ فيه بعد الرأي العام إلى أهمية هذه المهمات .

وليس مما هو أقل إفادة فيا كتبه المسيو (أنجلهرد) ، أن أميركا نفسها واجهت مثل هذه الصعوبات النفسية ، حتى التجأت إلى ما يسميه الكاتب (تلقين ضمير الشعب) حتى يستيقظ لأهمية هذه القضية .

وكنت ، قبل أن أقرأ شيئاً في الموضوع ، خصصت مقالاً سنة ١٩٥١ ، كي ألفت الرأي العام إليه ، ويسرني ، بعدما قرأت المسيو (أنجلهرد) ، أن وجهة نظري تطابق الإجراءات التي اتخذتها السلطات الأمريكية ، تلك الإجراءات التي غيرت وجه الأرياف الأمريكية في مدة عشرين سنة .

ونتمنى أن تتكرر هذه المعجزة في أرض الجزائر ، حيث نرى الإنسان مهدداً في قوته اليومي بسبب قضية التراب .

☆ ☆ ☆

قضية المرأة المسلمة

الجمهورية الجزائرية في ٢٦ / ٢ / ١٩٥٤

إن مقالتي الأخيرة كانت مخصصة إلى جانب من الحركة النسائية عندنا ، يتصل بصورة المرأة ، وقد بينت أنه الجانب (القشري) أو السطحي من حياة المرأة ، بينما المشكلة على مقدار من الخطورة ، خطورة لا يمكن معها أن نقتنع فيها بدراسة (القشرة) .

بل إنه لا يمكن في دراستها إغفال وجهة (فرويدية) ذات أهمية كبرى ، عندما نقدر الأشياء بالمقياس الاجتماعي والأخلاقي ، وحسب آثارها في التاريخ .

إن تطور المجتمع يرتبط ، فعلاً ، بتطور المرأة والعكس صحيح ؛ وطبيعة هذا الرباط كانت تستحق دراسة منهجية ، نراها أتت في كتاب صدر هذه الأيام بإنجلترا ، تحت عنوان (الجنس والتاريخ Sex in history) ونوهت به الصحيفة الباريسية (الإكسبريس) .

إن صاحب الكتاب ، (جوردون ريتري تيلور) ، لا يبدو أنه تناول قضية المرأة مباشرة ، وإنما نظر إليها من زاوية النتائج الاجتماعية ، أي إنه نظر إلى آثار المرأة في تطور المجتمع .

والكتاب يفتح هكذا باباً جديداً في علم الاجتماع ينظر إلى الأمور من زاوية (فرويدية) ؛ فمن هذه الزاوية ينطلق المؤلف من (احتمالين) يكتشفهما التحليل النفسي في الإنسان ويترجمها صاحب الكتاب بهذه العبارة : إنه يوجد في الإنسان نزعة (إيروس Eros) ، وهو حب وقدرة خلاقة ، ويوجد فيه أيضاً

نزعة (تناتوس Thanatos) ، وهو حقد وقدرة تحطيم من ناحية ، وقدرة مراقبة وتنظيم من ناحية أخرى .

وبقدر ماتكون النزعة الأولى أو الثانية هي المسيطرة ، يكون في المجتمع طابع الأمومة ، بما في ذلك من عبقرية الأنثى ؛ أو طابع الأبوة ، بما في ذلك من عبقرية الذكر .

وهذه الصفات قد يكون أثرها ظاهراً في نظام الأسرة ، حيث تكون الأسرة تحت سلطة الأم (Matriarcat) أو تحت سلطة الأب (Patriarcat) ، ولكن وبصفة عامة ، فإن هذه الصفات تحدد صورتين أومرحلتين من الحضارة ، تتسم كل واحدة منها بسمات معينة .

ويمكننا أن نتصور هاتين الصورتين أو المرحلتين من خلال طبيعة المرأة والرجل .

إن عنصر الأنثى يعني الخصوبة والتغير السريع ، ونشاهد أثره في أشياء مثل (الأزياء) و (التقدم) كما يحتوي ذوق جمال وشاعرية .

أما عنصر الذكر ، فإنه يعني القوة والاستمرار والمبدأ الأخلاقي والتصوف .

إنني لاأعتقد أن الكاتب الإنجليزي واصل التحليل إلى نهاية دور حضاري كامل ، لأنه يفقد هذا المفهوم ذاته ، مادامت الثقافة الغربية في دراستها تاريخ الحضارات لاتقف عند مفهوم (الدور الحضاري) .

أما إذا واصلنا نحن التحليل ، فإننا سنرى الحضارة التي تطبعها عبقرية الأنثى ستنتهي عندما تصبح المرأة (فارسة Omazone)[1] ويصبح فيها الرجل مخنثاً ـ وهي تنتهي إلى فجور وميوعة وانحلال ، أما الحضارة التي عليها طابع الذكر فتنتهي إلى الجفاف والعقم والتحجر .

---

(١) (الفارسة) هي المرأة في مجتمع أسطوري ، أخذت فيه الأنثى مقاليد الأمور وقامت فيه بأدوار البطولة .

لقد كان المجتمع الجاهلي كله تحت سلطة الذكر ، وقد كان فيه مافيه من قسوة (Chanatos) ، وفيه مافيه من نزعة التحطيم ، حتى إن المولودة كانت توأد ، يئدها أبوها . وحين جاء الإسلام كبح في الذكر دوافع الجفاء والتحطيم ، ولم يترك له إلا قدرة التغلب على النفس ، وقدرة التنظيم والتوجيه ، فكوّن بذلك مجتمعاً تتمتع فيه المرأة بكثير من الحقوق ، مقابل بعض الواجبات ، حتى إن الفقه الإسلامي لم يفرض عليها إلا واجب الزوجية ، أما الواجبات المنزلية ، كالغسيل والطبخ فإنها ليست مطلوبة منها ، وحتى الرضاعة ليست فرضاً عليها ، بل على الزوج أن يأتي بمرضعة لولده .

وقد نتصور أن هذه التسهيلات ، التي يقررها الفقه الإسلامي للمرأة غير معمول بها من الوجهة الواقعية ، لأنها ربما تبالغ في تحرير المرأة من أسر الحياة المنزلية ، ولكن هذه المبالغة من الناحية النظرية ، تلفت نظرنا للحالة الحقيقية التي تقع فيها المرأة المسلمة اليوم من حيث الأعباء المنزلية ، تقع فيها أو تعود إليها بنكسة المجتمع الإسلامي ، إذ يبدو أن هذا المجتمع ، بقدر ما فقد خصوبته وقوته في التنظيم ، قد عاد إلى الحالة التي كان عليها المجتمع الجاهلي من حيث الشدة والعقم .

إننا لانئد البنات اليوم ، لأن قانوناً ورثناه عن الإسلام لا زال يمسكنا ، ولأن قانوناً جنائياً يقفنا عند حدنا ؛ ولكن إذا لم ندفنهن على قيد الحياة في التراب ، فإننا ندفنهن في الجهل .

ولكن هذا الوأد لا ينسينا ما تركت لنا الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي ، من تقاليد تعلي من شأن المرأة ، ومن أسماء نساء لامعات تبقى آثارهن معالم الطريق لحركة نسائية إسلامية مجددة .

إن تلك الآثار تشمل الأدب والفنون والتصوف وعمل الخير . إن سيدات مسلمات قد تسابقن إلى الخيرات وتنافسن في البر والتقوى ، حتى تركن للأجيال

ؤ قدوة نقتدي بها ، إذ نجد في سماء الأدب الأندلسي اسم (ولادة) يلمع حين تشرف على (صالون أدبي) يجتمع فيه فحول الأدباء والشعراء ، قبل أن يلمع مدام دي رمبولييه) في الأدب الفرنسي بقرون .

ولقد بقي اسم (رابعة العدوية) يرفرف في أذهان الأجيال المؤمنة من بن ، نذكر قصتها عندما وقفت بشارع من شوارع بغداد ، وكان يمر موكب ، يشيع جنازة الرازي ، فسألت :

ـ لماذا احتشد الناس وراء هذا الميت ؟!

فرد عليها من رد :

ـ إنه وجد البراهين التي تدل على وجود الله .

فقالت العدوية :

ـ وهل وجود الله بحاجة لبراهين هذا الرجل ؟

وفي عهد أقرب منا ، أليس الفضل فيما تمتعت به البلاد التونسية من وسائل ة منذ عهد بعيد ، يعود إلى (عزيزة عثمانة) التي وهبت للبلاد جهازها ي الأول ...؟

ويجب أن نقول من ناحية أخرى : إن أوربا تدين إلى المجتمع الإسلامي فة التي انتشرت فيها في العصور الوسطى ، ونشرت في أرجائها تلك الفكرة بعل تقدير المرأة من تقاليد الفروسية ، ولكننا نرى أوربا اليوم في طريقها ضع (الفارسة) مكان (السيدة) ، وتضع ، بالتالي المخنث (Sy barite) الرجل .

ن هذا التغيير حدث بلا شك بسبب (التهور) الذي يطلقون عليه (تحرر

المرأة) كما يصفـه (فيكتور مـارجريت) في كتـابـه (لاجرصون)[1] ، وهو كأنـه يصفـه في مرحلتـه الأولى ، مبشراً بظهور المجتمـع الـذي تسـوده نـزعـات الأنثى في أوربا ، هذا في الوقت الذي ألغت فيه تركيا الحجاب والحروف العربية .

والآن ، لقد اتضحت القضية تماماً : إنه يجب علينا أن نعيد إلى المرأة الكرامة التي وهبها لها الإسلام ، عندما أنقذها من عادات الجاهلية القاسية ، ولكن فلنعـد لها كرامتها لنجعل منها (السيـدة) التي توحي إلى الرجل بـالعواطف الشريفـة ، لا (الفارسة) التي تسيطر عليه .

☆ ☆ ☆

---

(١) أي البنت المسترجلة .

تهور أم تطور

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/٢/٥

لقد حذرت ، في مقالة سابقة ، شبابنا من الخطأ الذي نقع فيه أحياناً ، عندما نتناول مشكلة في مكان غير مكانها ؛ ولعل القارئ وجد في هذا التحذير شيئاً من المبالغة . إذ أننا ، في نظره ، لم نتعود على هذا الخلط (بين أنبولة بقر وفانوس) ، حتى يبدو أننا في غير حاجة إلى مثل هذا التحذير .

ولكنني أدين بفكرة هذا الاحتياط ، مهما يبدو فيه من المبالغة في نظر بعض الناس أو البساطة في نظر الآخرين ، إنني أدين بهذه الفكرة لرجل أدين له أيضاً بالفضل الكبير في ميدان الفكر ، فهو وجه من الوجوه المشرقة بنور العلم ، يجمع في شخصه المواهب الفكرية والميزات الأخلاقية التي يتسم بها رجل علم فرنسي كنت تلميذه بباريس .

إن هذا الأستاذ الكبير كان يعلم تلاميذه كي يحتاطوا من (البديهيات) الخادعة التي تخدع الفكر بظاهر الأشياء ...

وكان هذا الأستاذ الكبير يستشهد في هذا الدرس ، الذي يتعلق بفلسفة العلم ، بقصة غاليلي (Galilée) الذي دفع حياته ثمناً في مقابل الخطأ الذي وقع فيه معاصروه ، عندما أخرج لهم نظريته المدهشة ، التي تقول لأول مرة ، إن « الأرض هي التي تدور حول الشمس » ، بينما كان الناس يعتقدون أن الشمس هي التي تدور حول الأرض . ولقد كان الخلاف بين من يرى مرأى الفكر مثل غاليلي ، ومن يرى مرأى العين أي الناس كافة الذين كانوا « يرون بكل وضوح الشمس تدور ... » .

فغاليلي ذهب ضحية هذا (الوضوح) الخادع الذي أخر العلم قروناً ...

كنت أتذكر هذه القصة ، عندما تناولت في مقالة مضت قضية المرأة عندنا ، وكانت تتجلى لي (البديهيات) الخطيرة التي تحوم حول هذه القضية ، ونحن نرى في كل (بديهية) منها الفخ ، الذي ربما يقع فيه عقلنا عندما نفكر في هذه المسألة . ومهما يكن الأمر ، فإنه ليس في نيتي أن أقدم هنا منهاجاً كاملاً للحركة النسائية عندنا ، وقد اجتهدت أن أبين بالقدر المستطاع ، مبادئها في محاولة سابقة[1] ، وإنما أريد أن أعقد الموازنة بين مظهرين من مظاهر هذه الحركة ، وهما مظهران يخشى أن يؤدي الخلط بينهما إلى عواقب غير محمودة في بلادنا .

ويجب منذ أول الأمر ، أن نقصي عن مجال الحديث اشتباهاً قد نقع فيه بسبب العنوان نفسه ، إذا اتخذناه في صورة متحارجة ليست في طبيعة الموضوع ، إننا لا نضع نقطة الاستفهام على طرفي مناقضة ، وإنما نضعها فقط للتعبير عن الفرق بين مظهرين مختلفين من مظاهر القضية ، مع الإشارة إلى أهمية كل واحد منهما وارتباط كل واحد منهما بمعطيات الموضوع .

ولسنا في حاجة إلى القول إن هذا التمييز لا يظهر تلقائياً بوصفه من بديهيات الحياة الاجتماعية ، لأن الحياة لا تحلل الأشياء وإنما تجمعها وتركبها أو تلفقها ، حسب درجة انسجامها .

ولكن الحياة تعطينا أحياناً المثل المقنع ، الذي يضيء بضوئه المباشر الموضوع الذي نريد فحصه أو فحص مظهر من مظاهره على وجه الخصوص .

ولا شك أن سكان العاصمة يتذكرون ، تلك (الهجرة) التي حدثت في

(١) راجع فصل المرأة في كتاب (شروط النهضة) .

أوساط الطائفة اليهودية بالجزائر ، بعد أن تأسست دولة إسرائيل ، ولا شك أنه كان بين (المهاجرين) عدد من النساء اليهوديات ، من أهالي وادي ميزاب ، ومن واحات وادي سوف ...

فهل نتصور المنظر ، منظر هؤلاء اليهوديات من الواحات الجنوبية بالجزائر ، إذا ما نزلن بتل أبيب وعليهن ملامح نساء تلك الواحات ، أي في عيونهن الكحل ، وفي أرجلهن (البلغة) وعلى رؤوسهن الملاءة اللف ؟

إننا نتصور لا شك (الثورة) التي كانت تحدث بتل أبيب لو حدث في شوارعها هذا المنظر ... ورأته المهاجرات الأخريات ، اللواتي ينزلن من إنجلترا ومن ألمانيا ...

ولكن القيادة اليهودية أدركت هذا ، وقد اتخذت الإجراءات الضرورية كيلا تحدث مثل هذه (الثورة) ...

ولا شك أن القارئ المسلم ، إذا كان من سكان العاصمة يتذكر ذلك الضجيج الملون الذي كان يسود حول تلك البناية الضخمة ، بشارع باب عزون ، حيث كنا نشاهد ، عندما يأتي قطار الجنوب بيهوديات يعبرن الباب ويدخلن في تلك البناية ، في صورة (بلديات) الواحات الصحراوية ، ثم نشاهد ، بعد أسبوع ، يهوديات يخرجن من ذلك المبنى في صورة (المواطنات) المتأهبات إلى الباخرة التي ستنقلهن إلى إسرائيل .

ومن يشاهد هذا المنظر يندهش من سرعة التغيير الذي حدث في صورة هؤلاء النسوة ، اللائي تركن بسرعة البرق (البلغة) كي يلبسن الحذاء الأنيق ، وتركن (الملحفة)[1] كي يرتدين (الفستان) ، وتركن زجاجة الكحل كي يتزودن بأدوات التجميل العصرية ...

---

(١) رداء النساء في الجنوب الجزائري .

ولا يشاهد المسلم هؤلاء اليهوديات قد تركن الأشياء القديمة فحسب ، بل يرى أنهن انسجمن مع الأشياء الجديدة ، كأن الملقن الذي أشرف على هذا التغيير ، أو الملقنة التي أشرفت عليه ، لم ينسيا كلاهما أي تفصيل في تكييف اليهودية كي تصير (مواطنة) في إسرائيل حتى في كيفية المشي برشاقة ... وكيفية الابتسام بأناقة ...

ولكننا ندرك أن العصا السحرية التي أحدثت هذا التغيير في أسبوع لم تحدث في الواقع إلا تغييراً سطحياً ، لم يؤثر إلا في مظهر شخصية يهودية جنوب الجزائر ، دون أن يغير كيفية تصورها ولا شعورها ولا تفكيرها .

فنحن هنا أمام تخطيط واطراد يخصان بتعبير بافلوف الحالة (القشرية) في الشخصية ، لا في حالتها الداخلية .

ولكننا نعرف عن القادة اليهود ، أنهم لا يباشرون المشكلات بمنطق السهولة ، حتى إننا نعتقد أنهم لا يقتنعون بهذا التغيير الشكلي أو (القشري) في المرأة اليهودية المستعدة للسفر إلى إسرائيل ، إلا على أنه خطوة أولى تمليها ظروف خاصة في سلسلة تطورية معينة .

ولا شك أننا نخطئ إذا قدرنا هؤلاء القادة اليهود على أنهم يخلطون بين هذه (الخطوة الأولى) التي تحدث في لمحة بصر تغييراً شكلياً مرموقاً ، وبين الاطراد الطويل الذي يغير (النفس) .

ها نحن أولاء الآن قد وصلنا إلى الشيء الذي هو بيت القصيد في هذه المقالة : إن الفرق الذي بيناه بين تغيير (القشرة) وتغيير (النفس) هو ما كنا نريد إبانته بين (التهور) و (التطور) ، أي بين ما يتصل بمظهر الشخصية ، وما يتصل بجوهرها .

فإذا استفدنا من يهود الجزائر ، من الناحية الفنية ، فيا يتعلق بمظهر المرأة ، فيجب علينا ألا نقتنع بهذا الجانب ، الذي يعني أحياناً تهور المرأة ، كي نفكر فيا يتعلق بتطورها .

ولو أننا تتبعنا خطوات اليهودية بعد خروجها من (مصنع) باب عزون ، حيث صنعت قشرتها الجديدة ، ورأيناها بعد وصولها إلى تل أبيب في صورة (مواطنة) ، لعرفنا كيف تتكيف مع الحياة الجديدة باجتهاد شخصي ، تتكيف بكبت العناصر النفسية التي لا تتمشى مع الشخصية الجديدة ، شخصية المواطنة ، وباكتساب عناصر أخرى من شأنها أن تغير الـ (أنا) في اتجاه التطور المنشود حسب رغبة المجتمع وأهدافه ومصلحته .

ومن الواضح أن هذا (الاجتهاد الشخصي) من أجل التكيف في الوسط الجديد ، هو من جانب الفرد (الرد) على أفعال المجتمع ، الذي يكون في الواقع العامل الأساسي في تطوير الفرد .

أو بعبارة أخرى : إن الفرد لا يتطور في مجتمع جامد ، وإنما يتهور فيه أحياناً .

والآن ، لو طبقنا هذه الاعتبارات العامة ، في الحركة النسائية الجزائرية على وجه الخصوص ، فإننا نرى أنها تتضمن جانبين :

١ ـ درس شروط التغيير الشكلي عندما يمر المجتمع بظروف خاصة تقتضي بأن تكون صورة المرأة مطابقة لنموذج معين ، وأن يكون لها أسلوب معين ، هذا بالنسبة للفرد .

٢ ـ درس الشروط التي يجب فرضها على المجتمع كي يقوم بدور التوجيه ، أو التطوير للمرأة في الاتجاه المقصود .

وإننا نـدرك كم يجب ، في هـذا الفصل ، أن نعتني أولاً بتحرير سيكولوجيـة الرجل : الأب والأخ والزوج ، كي تمشى مع مقتضيات المشروع في عمومه .

ويجب أن نلاحظ أن هذا التخطيط المصنوع صناعة نظرية ، هو ما تقتضيه ظروف خاصة عندما يجب أن تسير الأمور بالسرعـة والتعجيل ، أمـا في الظروف العادية ، عندما تسير الأمور بطبيعتها ، فالنموذج الـذي تكون عليـه صورة المرأة في المجتمع ، يكون نتيجة لتطور بطيء ينحت هذه الصورة نحتاً عبر القرون .

ولكن كيف يتسنى لنا أن نحدد هذه الشروط كلها ، بـالنسبـة لأفعـال المجتمع وبالنسبة لرد الفرد (المرأة) عليها ، إن لم تعرض القضية على مؤتمر يـدرسهـا بكل تفاصيلها في مناقشة عامة تهيئ الجو لتطبيق الحل ، وربما تجد الحل ذاته ... ؟

ضرورة مؤتمر جزائري لتوجيه العمل

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/١/١٠

إن المقالة التي نشرتها بخصوص قضية العطلة ، قد سببت رداً عليها باسم شباب حزب البيان ؛ فيما يبدو ، باسم الفئة التي كان لها الفضل في توجيه نداء للرأي العام من أجل دراسة القضية . ولقد كنت أهدف بمقالتي إلى إنشاء حوار حول قضية حيوية في بلادنا ، لعل هذا الرد صورة من الحوار الذي كنت أتمناه مهما يكن في الأمر من الغرابة ، لأن الحوار يكون عادة ، بين أشخاص من نوع واحد ، لا بين شخص معين وشخصية مجردة ، تمضي باسم (شباب البيان) ...

وعليه فإنني أتصور الحوار بيني وبين جماعة من الشباب الجزائري من ذلك الشباب الذي نحبه ، لأنه في مقدمة الكفاح ضد الاستعمار ... ، ونحييهم خاصة عندما نراهم يواجهون مشكلة العطلة ، تلك المشكلة التي تخص مباشرة بحدة الشعب الجزائري ، كل يوم ، أي أنها تؤثر في حياتنا في كل يوم .

ولكنني أتساءل عندما أقرأ الرد المذكور : هل زل قلمي حتى انقلب ما أردت أن أبلغ من شكر للشباب الذي وجه النداء ، انقلب ذماً حينما انتقل من فكرة في خاطري إلى جملة على الورق ؟

في الحقيقة إنني أخشى أن يكون (النقد) لم يدخل بعد في عاداتنا ولم يستقر في جونا العقلي ، وأن الكلمة ذاتها لم تبرح أجنبية عن قاموسنا ، أو أنها تعني شيئاً آخر ، كأن كلمة (نقد) وكلمة (تشويه) مترادفان في لغتنا .

إنني أخشى هذا ، وأتذكر أن هذه الخشية قد اعترتني في مناسبة أخرى عندما نشرت كتاب (شروط النهضة) ، وكنت خصصت فيه فصلاً لذكر الحركة الإصلاحية التي قامت بها جمعية العلماء في البلاد ، وإذا بي أجد ، يوماً في جريدة جمعية العلماء (البصائر) رداً من قلم أحد أعضائها المتكلمين باسمها ، يرد علي كأن كتابي المذكور لم يكن همه إلا الكلام في هذه الجمعية بما يشوه سمعتها[1] .

وذلك لأنني هممت في هذا الكتاب ، بعد أن بينت فضل الحركة الإصلاحية في بلادنا ، هممت أن أبين جوانب الضعف فيها ، خاصة على أثر (ورطتها في الوحل السياسى سنة ١٩٣٦) .

وكانت دهشتي تزيد عنفاً ، عندما أتصور موقف هذا المفتش في جمعية العلماء ، موقف من كان يعيش حياته بكل هدوء وطمأنينة ، في الأيام التي كنت أعيش فيها بباريس ، وأحمل بها وحدي لواء الإصلاح في وجه العواصف والأعاصير التي يثيرها الاستعمار على خصومه !. حتى جاء اليوم الذي بلغ فيه السيل الزبى ، في نظر المستعمرين ، اليوم الذي رشحت فيه اسم (بن باديس) لرئاسة الشرف لجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين[2] .

فليطمئن (شباب حزب البيان) أن أحداً لا يشك في صفاء نياتهم ولا في طيبة قلوبهم ، ولا في جد جدهم ، وأنني خاصة لا أريد ، عندما أقدم نقدي في موضوع ما ، لا أريد أن أحملهم (وحدهم) إثمنا (جميعاً) ولاسيا في المقالة

---

(١) وهذا الكتاب مترجم الآن إلى اللغة العربية ، حتى إن القارئ العربي يمكنه أن يفهم من خلال هذه السطور ، أسلوب الصراع الفكري ، وكيف يحاول الاستعمار أن يسخر (أقلامه) حتى يظهر كتاباً يحاول دراسة (شروط الحضارة) ، يظهره في صورة كتاب وضع للحديث عن الأشخاص .

(٢) ويجب أن نقول : إن أول من قاوم هذه الفكرة كان من بين الطلبة أنفسهم ، ممن يتزعم اليوم الحركة الوطنية ، لأنها أصبحت تجارة مربحة بينما كانت تجارة خطيرة قبل ربع قرن .

المتهمة ، عندما أقول إن في رأي من (يشبهنا بفراشات جميلة) مزيداً من تسويغ مراجعة نفوسنا ، بطريقة النقد الذاتي .

ومهما يكن الأمر ، فإن أحسن مواهب الإنسان وأطيب نياته لا تمنع من تأثير نوائب الزمن ، الملازمة للقوانين التي تحكم مصيره .

وفي المجال الاجتماعي خاصة ، فإن مشكلة تطرح على بساط البحث لا يعني أنها حلت . والفضل في طرح مشكلة للبحث مثل فضل الشباب الذي دعي إلى بحث مشكلة العطلة ، لا يربطها بحل معين ، ولا يرفض هذا الحل مسبقاً .

فالحل منوط بمجموعة شروط ، تكون المقياس الذي يجب التمسك به للوصول إلى الهدف المقصود ، بجهد لا ينزل عن مستواه ، ولا ينحرف عن اتجاهه ، لأن الخطأ قريب من العقل ، ومن أقرب الأشياء إليه أن يتناول مشكلة مكان أخرى ، ولا يتكرر من الكوارث مثلُ كارثة الكلام عن شيء ، والعمل كأننا نريد شيئاً آخر . إننا أحياناً نتكلم مثلاً عن تطور المرأة ونعمل كأننا نريد تهور المرأة .

والشيء الذي يجب أن نلاحظه بخصوص موضوعنا ، هو أن شباب حزب البيان لم يخطئ في المشكلة ، ولكن كان معرضاً للخطأ في محاولته لحلها .

فلنعد إلى القضية بصورة موجزة : إن شبابنا المناضل تناول مشكلة حيوية ، وأوحت له خطورتها ببعض المبادرات : بعض (الاحتجاجات الشديدة) موجهة إلى الخارج ، وبعض (المطالب الملحة) موجهة إلى الداخل . فهذه ، لا شك نيات طيبة ، وجهود محمودة .

وإني لأقرأ ، من ناحية أخرى ، على أعمدة هذه الجريدة مقالة مفيدة تتضمن أفكاراً قيمة في الموضوع ، ويفيدنا خاصة صاحبها فيما يتعلق بالتكوين المهني المستعجل .

ولكن كل هذه الأشياء القيمة لا تأتي بحل ، ولا تضعنا في طريقه ، بل هي على العكس جديرة بأن تلفتنا عن هذا الطريق ، وجديرة بأن تزيد هكذا في تعقيد المشكلة ، دون أن نشعر بذلك .

فلنوضح موقفنا كما ينبغي : إن مشكلة البطالة بالجزائر تتميز بطبيعة خاصة ، لأنها ليست قضية فئة من الناس تحرمهم من الشغل أزمة اجتماعية مؤقتة ، فينتظرون ، على أبواب المصانع والورشات ، عودتهم إلى الشغل ، بل هي قضية الشعب بأكمله ، شعب وضعته ظروف اجتماعية وسياسية ونفسية خارج دائرة العمل[1] .

وعليه ، فإذا كان الحل على صورة (مكتب تشغيل) يصلح في الحالة الأولى ـ عندما تخص القضية فئة من الناس ـ فإنه لا يصلح في الحالة الثانية ، وربما كان مضراً إذا أضاف عنصراً نفسانياً يعقد المشكلة ، ويغير الاتجاه إزاءها ، ويمكن أن نستدل على هذا الخطأ بمثل ملموس يعطيه لنا ذلك الشاب ، الذي كان رده على نداء (شباب حزب البيان) بأنه وجه إلى هذه الهيئة طلب تشغيل كـ (نصف مهندس) وهذا خطأ في تفهم فرد للقضية ...

ولكن عندما نرى الهيئة التي يتوجه إليها هذا الشاب تنشر طلبه في جريدتها ، كأن القضية قضية فرد أو أفراد معدودين ، فالخطأ هنا أكبر ، لأنه يتضمن عنصراً فكرياً ونفسياً ، يؤدي إلى محاولة عابثة ، كأن الحل منوط بصحيفة تنشر على أعمدتها طلبات الذين يبحثون عن شغل ... إذ الطريقة ستكون مضحكة ، بلا ريب عندما يكون عدد الطلبات يبلغ الملايين ...

---

(١) وقد يلاحظ القارئ من الجملة التي نقلناها له في التعليق الذي يتبع هذا المقال ، وهي مقتطفة من مقالات صدرت في العدد نفسه مع المقالة التي نترجمها هنا ، فهو يدرك هكذا أن الاستعمار بدأ يهيئ الجو في الوقت الذي تنشر فيه هذه المقالة ... حتى لا يتحقق أثرها .

وزيادة على هذا ، فإنني على يقين من أن الطلب الذي وجهه الشاب الذي يبحث عن عمل (نصف مهندس) ، لم يجد في سوق العمل من يلبيه ... (وأتمنى أن يأتيني النبأ الذي يجعلني أخطأت تقديري) ...[1]

وعليه يجب أن ندرك كيف يكون الحل الذي نقدمه أو نقترحه في صورة (مكتب تشغيل) ...؟ قد يكون صداه ، في حياتنا العامة ، سلبياً من وجهين ، لأن الفشل المزدوج الذي ينتج عنه يزيد من ناحية (الجمهور) في عدم الثقة ، ومن ناحية (النخبة) قد يزيد في الشعور بالعجز الذي يؤدي إلى اليأس والتقليل من الإرادة في العمل ...

وهكذا يدخل عنصر سلبي جديد في حياتنا ، ويضع ثقله على نشاطنا في المستقبل .

وإذن ، أين الحل ؟

لو كان لي به دراية ، فإنني لا أنتظر أن يطلب مني رأي في الموضوع ، أو أن يطلب مني (شباب حزب البيان) بأن أعيره مما في (تجربتي) كما يقترح علي من قام بالرد باسمه .

ولكن ، إذا لم تكن تجربتي جديرة بتقديم حل جاهز ، فإنها توحي لي بأن هذا الحل سينتج بكل تأكيد من البحث والمناقشة ، لو انعقد مؤتمر ، لأنه سيجمع حتماً عناصر هذه المناقشة ويجمع كل ما يقال أو يفعل فيما يتصل بالموضوع ، يجمعه مع أشياء أخرى يشملها البحث ، كي يصوغ من كل هذا الحل المشروع ، أي الحل الذي لا يغير في الحين الرجل المتعطل إلى رجل يعمل ، ولكنه يدل على كل الشروط الباطنة والظاهرة لهذا التغيير .

وهكذا فإن (تجربتي) ، إن لم تدل فوراً على الحل نفسه ، فإنها تدل على

(١) وأقول للقارئ إن هذا النبأ لم يأت لا على أعمدة الجريدة ، ولا في بريد خاص .

الطريق الذي يؤدي حتماً إلى هذا الحل ، وهذا الطريق يمر بـ (مؤتمر جزائري لتوجيه العمل) .

وهذا بالضبط ما قلته من دون تفاصيل في المقالة التي سببت الرد الذي دفعني إلى هذا الجواب ، ولو أن الشاب الذي قام بالرد قرأ هذه المقالة بإمعان ، لوجد فيها أكثر من تسلية (صحافية) أو (أدبية) ..

تعليق

لقد ذكرت على هامش المقالة السابقة بعض الإجراءات التي يتخذها الاستعمار في نطاق الصراع الفكري عامة ، وكيف كان موقفه إزاء المقالة التي نشير إليها على وجه الخصوص ، ولكنني لم أذكر كل هذه الإجراءات إزاء ما نشرت بخصوص قضية العطلة .

إنني قلت كيف يسخر (قلماً) من أقلامه كيلا يكشف القناع عن وجهه .

ولكن يجب أن نضيف أن الاستعمار لا يسخر قلماً واحداً في قضية هامة بل أقلاماً : فيكتب القلم الأول كي يحرم الأفكار المقصودة من التأييد العاطفي في البلاد ، لأن هذا القلم يمضي سخافته باسم (هيئة الشباب) حتى تؤدي مفعولها دون أن ترد عليها . ثم يكتب القلم الثاني ، كي يسلب - بالإيحاء ومجرد الإشارة - المقالة المذكورة قيمتها الفنية ، وبما أنها ركزت جهدها على جانب (الأسباب) في القضية المعروضة ، فيقول هذا القلم « إن البحث عن الأسباب الاقتصادية والسياسية والنفسية ، لابأس به ، لكن عرض (الوسائل) النافعة الفعالة يكون أجدى .. » (الجمهورية ١٩٥٤/١/١٥) . كأن الوسائل تنبع وحدها من العدم دون أن نعرف (الأسباب) التي تدعو إليها ، ثم لا يقتنع الاستعمار بهذا الهجوم فقط ، بل يشن غارة أخرى ويسخر لها صحافة حزب (وطني) آخر ، حزب مصالي

حاج ، فبمجرد ما أشير في مقالتي السابقة إلى عقد مؤتمر لدرس قضية العطلة ، يصدر حزب مصالي نداء لجمع هذا المؤتمر نفسه ، حتى لا يبقى فضل لصاحب الفكرة في ذلك لأن هذا النداء لم يذكر ما سبق في الموضوع .

وهكذا تحاط الأفكار من كل جانب ، ويقاومها الاستعمار بكل ما لديه من الوسائل ، وقد رأينا عدد الوسائل التي يتصرف فيها في قضية واحدة .



تفاهات جزائرية

لو أن أحداً استساغ أن يشبهنا ـ باللسان أو بالقلم ـ فشبهنا بفراشات جميلة تتفسح في يوم الربيع ، تطير رشاقتها الملونة من زهرة إلى أخرى ، وهي تداعب حيناً البنفسج وتارة تداعب النرجس ، لنظرنا إلى من يشبهنا بهذا التشبيه اللطيف على أنه يستخف بنا ، وأنه يقصد بهذا التشبيه إهانتنا ، لأن عقله لا يتورع عن السخرية ...

ولكن ، لو رجعنا لنفوسنا بالنقد الذاتي ، فلربما نغير موقفنا من هذا الرجل ، فلا نحمله الإثم الذي نحمله .

ورجوعنا لنفوسنا يمكن بفحص أي قطعة محددة من نشاطنا الاجتماعي ، وإننا لنجد في حدث قريب المثل الذي يسوغ هذه الاعتبارات في غاية الوضوح .

إن طليعة الشباب في حزب البيان ، في منظمته الخاصة بالشبان قد أطلقت منذ أسبوعين ـ وهي صاحبة الفضل الكبير في ذلك ـ أطلقت صرخة مثيرة فيما يتعلق بخصوص قضية العطلة في الجزائر .

وإننا نعرف ، فعلاً ، الحالة المثيرة التي تجد فيها نفسها شبيبتنا التي تقضي ساعاتها وسنواتها في الشارع .

وإنه لمن الأشياء التي لا تحتاج إلى دليل أن حجم الجهد الاجتماعي ـ ويجب أن يكون كذلك ـ بقدر المشروع الذي يريد تحقيقه ليكون هذا مقياساً للأول .

فهذا أمر في منتهى الوضوح .

والآن فنحن نعرف جيداً حجم قضية العطلة في الجزائر ، لأن هذه القضية تشغل ، مع الأمية ، المكان الأول بين العاهات الاجتماعية في هذه البلاد .

وعليه ، فإن صرخة شباب حزب البيان ، كانت - فيما يبدو - تبشر بعهد جديد بالنسبة إلى العطلة ، كدعوة لدراسة هذه القضية دراسة مثمرة ، من شأنها أن تأتي بالحلول المناسبة للمشكلة المعروضة .

ومما كان يزيد في توقع هذا الأمر ، أن نداء الشباب كان يطلب الردود متعمداً ... فكان إذن من المنتظر أن تقع مناقشة بين هؤلاء الشبان الذين لم يتقرر مصيرهم ، فيعرضون مطالبهم ويعبرون عن رأيهم ؛ ويقترحون فيها ما يرونه مناسباً من الحلول ، ويشرعون في مبادرات أو يسهمون فيها ... أي بكلمة موجزة ، إنهم سيتخذون في هذا الأمر موقفاً حاسماً .

وكانت أهمية هذه الفرصة تتزايد في نظرنا ، بقدر ما كنا ننتظر أنها ستجلي في ضوء واحد ، موقفين : موقف أصحاب النداء أي النخبة ، وموقف من يتوجه إليه النداء أي الجمهور ، أي موقف الطائفتين اللتين تكونان العناصر المحركة لحياة اجتماعية ، وكانت الفرصة هكذا تفسح المجال لاختبار أهم جانبين في الشباب الجزائري ؛ ولكن لقد مضت الأمور في الأول ، كأنما نداء شباب حزب البيان لم يخص حالة عامة ، وإنما بعض الحالات الخاصة ، لم نعرف منها بالتالي إلا حالة واحدة ، حالة شاب ميكانيكي كان له الفضل في الدخول في المناقشة المطلوبة .

فدخل فيها وحده دون أن يكون له رفيق ... فالواقع أن المناقشة لم تقع ، لأن الجانب الذي كان سيمثل فيها (الجمهور) يفقد الروح الاجتماعية ، كما يعبر عن ذلك موقفه السلبي ، وسنقول فيما يتبع شيئاً عن معنى هذا الفقر الاجتماعي الذي يؤدي إلى نتيجة غير منتظرة ، لأنه من الوجهة العلمية كأنه نافية تنفي وجود القضية المعروضة للبحث .

ومن ناحية أخرى ، يجب أن نلاحظ أن الجانب الآخر الذي كان سيمثل في القضية (النخبة) كان مصاباً أيضاً بفقر اجتماعي ، ولكن من نوع آخر كما يدل على ذلك عدم تنبهها إلى سلبية (الجمهور) التي أشرنا إليها ، بوصفها مشكلة اجتماعية قائمة بذاتها يجب إضافتها إلى القضية المعروضة كي تدرس على أنها جزء منها يزيد بضوئه الخاص في توضيح القضية .

وهذا يجعلنا نقول إن (النخبة) عندما تفقد موهبة النقد الذاتي على وجه الخصوص ، فهي على هذا كأنها اقتنعت بتسجيل الفشل ولكن دون أن تسعى في تفهم أسبابه ، وإننا نتمنى أن تكون قد شعرت بهذا الفشل ، حين لم يكن لندائها صدى يذكر .

فلو أن النخبة درست هذا الفشل ، لاستفادت منه أكثر مما يفيدها نصف نجاح خداع ... لأنها تدرك من خلال تلك الدراسة حقيقة الأمر ، أعني حقيقة الشروط الخاصة التي يجب أن تخضع لها جهدها كي تحقق به نجاحاً كاملاً .

فمن الواضح أن الصمت ، الذي كان الرد الوحيد على النداء الذي وجهته هذه (النخبة) ، يعني من ناحية (الجمهور) التهيب وفقدان الثقة والأمل ، ويعني من ناحيتها نقصاً في التنظيم .

وعليه فالفشل يتضمن جانباً سيكولوجياً وجانباً فنياً[1] .

ومن البين أن الجانب الفني أي النقص في التنظيم وفي التخطيط وفي توجيه العمل المشترك ، هو عمود القضية ، لأننا لو وضعنا هذا الجانب موضع التأمل

---

(١) وهذا التحليل صحيح لا بالنسبة لقضية محلية بالجزائر فقط ، ولكنه صحيح بصفة عامة بالنسبة إلى حركات الإصلاح كلها في العالم الإسلامي ، فإن هذه الحركات فشلت كلها لأنها لم تدرس أرضها قبل الشروع في العمل .

والـدراسـة ، لـدعـانـا ذلـك إلى مزيـد من التـأمل في القضيـة الرئيسيـة ، قضيـة العطلة .

ولكن إذا أردنا أن نذهب في هذا السيـاق إلى أقصى التحليل يجب أن نقول ، إن المشكلتين بقيتـا معـاً دون حلـول ، فـلا (الجمهـور) اكتسب الروح الاجتماعي الذي يفقده ، ولا (النخبة) اكتسبت الفكر الفني الذي يعوزها .

ولكن الشيء الـذي يـزيـد في الطين بلـة أعني يـزيـد فيما يعـاني الشعب من فقدان الأمل وعدم الثقة ، هو أننا سجلنا الفشل في مشكلة معينة ، وتركنـاهـا في الطريق دون حل ، وذهبنا إلى آفاق أخرى وإلى مشكلات جديدة ، كأن المشكلة التي مررنا بها لا وجود لها . فنتنـاول مثلاً مشكلـة المرأة ، ثم نتركهـا بـدورهـا في الطريق ، ونمر هكذا مر الكرام على الأشياء ...

أليس في هذا ما يجعلنا نستحق فعلاً التشبه بالفراش ، لأننا ننتقل من مشكلة إلى أخرى تسلية وتضييعاً للوقت .

ومن الناحية الجدية : أليس في هذا الـدلالـة بـأن موقفنـا الاجتماعي لا يتسم بالإرادة المتصلة والجهـد المتواصل ، ولكنـه يتسم بـالمحـاولات المتتـابعـة والإرادات الخافقة .

وإذا حللنا مجهودنا تحليلاً جذرياً وجدناه متفكك الأجزاء كأنـه مركب على صورة الخط المنقط ، الخط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئاً .

وإننا نجد هنا ، في صورته الاجتماعية ، المرض الذي سمينـاه (الـذريـة) في تفكيرنا ، ذلك المرض الذي أشار إليه عالم إنجليزي حقاً .

وربما حان الوقت كي نتنـاول المشكلات في عمقهـا ، في منـاقشـة تتسع بقـدر

ما يمكن إلى دراسة مدققة ، أي في مؤتمر يكون موضوعه دراسة القضايا القائمة مثل قضية الرجل بلا شغل ، والمرأة بلا مركز اجتماعي ، والطفل بلا مدرسة[1] ..

---

(١) لقد بينا في كتاب (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) كيف يشغل الاستعمار حشداً من مراصد خاصة ، لترقب ظهور الأفكار كي يوجه الاستعمار طلقاته عليها بالسلاح المناسب .
وفعلاً بمجرد نشر هذه المقالة سخر الاستعمار أحد (أقلامه) كي يرد عليها ، ولكنه بحكم خطته أمر (قلمه) المسخر ألا ينشر سخافته باسمه الشخصي ، بل باسم الهيئة التي وجهت النداء حتى تختفي السخافة تحت لقب يعيرها ماتفقد من الوقار ، وتخفي كذلك يد الاستعمار ، ثم يأمره بتحويل معنى الكلام حتى لا يرى الشباب الجزائري في مقالتي النصيحة التي أوجهها له كي يسدد نشاطه الاجتماعي ، بل يصورها له على أنها نكران لنشاطه الاجتماعي .
وهذا الرد ينشر في الجريدة نفسها التي نشرت مقالتي : أي في جريدة (وطنية) !!!
وهذا مانعني بالضبط عندما نقول إن بين الاستعمار وبعض الزعماء ميثاقاً خفياً يستغله كلا الطرفين في ميدان الصراع الفكري ..

باعة الحضارة

الشباب المسلم في ١٦ / ٤ / ١٩٥٤

إننا نعرف في الجزائر ، وفي البلاد الإسلامية الأخرى ، ذلك الوجه المألوف ، وهو يشق طريقه بين الجماهير في أسواق المدينة وبطحائها ، يوزع مجاناً ماء غدقاً ، يسكبه من قربة يحملها بجنبه يمر وهو يكرر كلمته المعروفة لدى أجيال المسلمين :

ـ في سبيل الله ! السبيل !..

إننا نعرف هذا الوجه الأصيل بين وجوه أخرى ، كذلك المؤذن وهو يوزع في الواقع زهده ، وطمأنينة عقيدته وروحانيته العميقة في الأسواق ..

فكل حضارة تصنع هكذا نماذج اجتماعية ووجوهاً تقليدية تتعاقب في الأجيال ، تضع عليها طابعها ، وترسم على ملامحها ما يعبر عن رسالتها الخاصة .

فالحضارة الغربية ، باعتبارها شغالة ومهنية ، قد صنعت النموذج الاجتماعي المطبوع بما نسميه مثاليتها ، أي المطبوع بالعبقرية التي تتمثل فيما يطلق عليه الإنجليزي (الشغل Business) وبالحكمة التي يعبر عنها هذا الرجل فيقول :

ـ إن الوقت درهم ...

ومن الطبيعي أن يكون هذا النموذج متنوعاً حسب الحاجة في مجتمع اعتنى أكثر من غيره بالتخصص وتوزيع العمل .

إننا لا نجد هذا النموذج متمثلاً فحسب في البقال ، وفي السمسار الذي يعرض العمارات للبيع ، وفي بائع الحديد القديم ، وفي بائع المخلفات أي في كل بائع لشيء من الأشياء ، بل نجده متمثلاً في البائع الذي يبيع (لاشيء) .. أي في البائع الذي لا يسلمك شيئاً في مقابل نقودك .

إنك تعرف ، لاشك ، إذا كنت من سكان مدينة كبيرة في الغرب ذلك الزائر الذي يدق على بابك ليعرض عليك إما (مصاصات الغبار) التي تمتص الغبار من السجاد ، وإما تكبير الصور العائلية فيقول أحدهما :

ـ يا أستاذ ، إن الآلة التي أعرضها على حضرتكم ضرورية لصحة بيتكم ، لأنها تكفيكم شر المكروبات الموجودة في الغبار .

ويقول الثاني :

ـ يا سيدي ، إن دارنا تمكنكم مجاناً من حفظ ذكريات العائلة من التلف .. يجب أن تكبروا صور العائلة كي تحتفظوا بها .

إنك تستمع هذا وتبتسم طبعاً لهذه العبارات البريئة ، لأنك ترى المصلحة الشخصية فيها ، وهي تحاول أن تختفي وراء مصلحتك .

ولكن مهما يكن في موقف هذين الزائرين من انتفاعية بسيطة متخفية ، فإنهما على كل حال ، يعرضان عليك شيئاً معيناً ، مقابل نقودك .

ولكن كيف نحكم على من يأتي إلى بابك كي يبيع لك الحضارة ؟. إن بعض القيم لا تباع ولا تشترى ، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها إلا ثمرة جهد متواصل أو هبة تهبها السماء ، كما يوهب الخلد للأرواح الطاهرة ، ويوضع الخير في قلوب الأبرار .

فالحضارة من بين هذه القيم التي لاتباع ولا تشترى ولا يمكن لأحد من باعة المخلفات أن يبيع لنا منها مثقالاً واحداً ، ولا يستطيع زائر يدق على بابنا أن يعطينا من محفظته ، أو من حقيبته الدبلوماسية درة واحدة منها .

فهذه الاعتبارات تجعلنا نقف ، من الجلسة التي عقدتها ، أخيراً ، أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية للاستماع إلى مدام (لويزفيس) ، التي تحث الغرب على مواصلة عمله في البلاد المستعمرة كي يقي هذه البلاد من العودة إلى الفوضى .. إننا لانرى في هذه الجلسة أي جانب بناء ، كأنها مجرد جلسة تسلية لهذا المجلس المحترم .

إنه لا يمكننا الحكم المدقق على قيمة ماقيل خلالها بوصفه وثيقة تخص علم الإنسان في القرن العشرين ، لأنه ليس لدينا العرض الكامل للجلسة .. إنه يمكننا فقط أن نتصور هذا العرض من ملخص مانشرته جريدة (لوموند) ، ومن التحفظات التي يدلي بها المسيو (لاند) بالنسبة إلى بعض المسلّمات التي يستند إليها الحديث الذي دار خلال الجلسة ، ولكننا نريد إسناد ملاحظاتنا إلى نيات مدام (لويزفيس) ذاتها .. لافيا يتعلق بنياتها الشخصية الخاصة ، لأننا نحترمها بوصفها شيئاً يتعلق بحرمة الذات الإنسانية ، ولكن بالنسبة إلى ماهو من وحي الثقافة العامة المتمثل في (نية تحضير البلاد المستعمرة) أي في العبارة التي نجد فيها أكبر تعبير عن نفاق الاستعمار .

ومن الطبيعي أن (نية) كهذه ، تخلق اشتباهاً يجعل فعلي (حضّر) و (استعمر) بمثابة المترادفين ، ونجد شخصيات لامعة مثل الأستاذ (شيجفرد) والقسيس (بجنر) والكاتب (دوهامل) يشاطرون مدام (فيس) هذه النية أي هذا الالتباس ..

والنتيجة العاجلة للمسلّمة التي تتضمنها هذه (النية) ، أو إحدى نتائجها في

نطاق السياسة ، هي تلك المرافعة ، التي شرعت فيها (مدام فيس) ، في محاضرتها ضد ماتسميه ، زعماء الشعوب المتخلفة ، لأنهم في نظرها يحرمون هذه الشعوب من الخيرات التي تقدمها لهم الحضارة الغربية ، وعليه فإن الإثم والجريمة يتكفل بها (الزعماء الوطنيون) أنفسهم ، وهم المسؤولون بالجزائر مثلاً ـ كما يستنتج من كلام هذه المحاضرة المحترمة ـ هم المسؤولون عما يعاني الشعب الجزائري من فقر وجهل وعطلة ...

وهم ، بطبيعة الحال ، الذين يقررون الأجور المخزية التي يتقاضاها العامل الجزائري اليوم ، إذا ساعده الحظ فوجد عملاً ، كما يقررون ، طبعاً ، الأسعار المنحطة للبضاعة الأهلية ، مثل الحلفة ، في الأسواق العالمية ... وهم .. وهم ...

ولكن فلنكف عن هذه التسلية ولنعد للجد : إننا لانستطيع أن نتصور أن المحاضرة المقتدرة على هذا الجانب من البساطة ، حتى تعتقد أن الشعب الجزائري يدين بحالته التعيسة إلى بعض الأرواح الشريرة المتجسدة في قادته ، وأن الاضطهاد الرهيب الذي يئن تحته الشعب التونسي اليوم من صنع (فرحات حشاد)[1] على سبيل المثال ؟

ولكن فلنحذر أن ننزلق إلى الاعتبارات السياسية ، وليبق حديثنا على (النية التحضيرية) ، إننا لانتصور هذه النية في سياسة الغرب في المستعمرات لأننا لانعرف الركن الذي تشغله هذه النية في شيء يسمى (ضمير الاستعمار) ... بل نشعر أحياناً بأنه يجب قلب ماقالته مدام (فيس) لنكون في الصواب ، لأننا نرى فعلاً الاستعمار يتدخل في شؤون (الحياة الأهلية) ـ كما يعبرون ـ في اتجاه ينافي تماماً كل حضارة وكل نية تحضير ... ولا حاجة لنا بتجربة نادرة كي نتأكد من هذه الحقيقة .

---

(١) فرحات حشاد هو أحد شهداء الحركة الوطنية التونسية ، وقد قتله الاستعمار ومثل به تمثيلاً شنيعاً .

وفيما يخصني ، فإنه يمكنني القول ، بأن أي مجهود حضاري بذلته منذ عشرين سنة ، بصفتي رجلاً يمارس الحياة الفكرية إلى حد ما ، قد رجع علي ، من الناحية الإدارية بكل شر ...

وعلى سبيل المثال أذكر أنني قدمت ، بعد نهاية دراستي سنة ١٩٣٦ ، طلباً إلى الوزير المسؤول بباريس من أجل تأسيس معهد بقسنطينة ، لتحضير الطلبة الذين يرغبون في الدخول إلى كليات الهندسة ، فلم يأتني رد .

وفي سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ أسست بمدينة مرسيليا مدرسة للأميين في سن متقدم من بين إخواننا العمال المشتغلين بفرنسا ، فدعتني الإدارة المختصة ومنعتني من أن أواصل التدريس في هذا المعهد البسيط بدعوى أنه ليس لدي المؤهلات الكافية لتدريس ألف باء ...

وعليه فالنية التحضيرية ، بعيدة بعداً كلياً عن واقع الاستعمار ، بل ما هي في كلامه إلا مجرد مسوّغ يسوغ به موقفه ، وحتى على احتمال أن هذه النية موجودة فعلاً في واقع الاستعمار أو في رسالته كما يقولون ، وهذا طبعاً أقصى ما يمكن تسليمه لمدام فيس ـ على سبيل المناقشة ـ فيبقى أن المشكلة التي وضعتها للبحث في جلسة أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية : ليست موضوعة على أساس ، لأنها تتضمن مسلّمة لا تقنع أحداً ، ألا وهي تلك التي تجعل من فعلّي (استعمر) و (حضّر) مترادفين .

والواقع أن الحضارة ليست شيئاً يأتي به سائح في حقيبته ـ مع أن صورة السائح لا تورط مفهوم الحضارة مثلما تورطه صورة المستعمر ـ لبلد متخلف كما يأتي بائع الملبوسات البالية ، بل إن ابن المستعمرات هو الذي يذهب إلى الحضارة ، إلى مصادرها البعيدة ، وقبل كل شيء إلى مصادرها الأقرب من أصالته . وليست الحضارة في نية المستعمر ، ولو صحت هذه النية ، بل هي

نتيجة الجهد الذي يبـذلـه كل يوم الشعب الـذي يريـد التحضير ، وفي إرادة هـذا الشعب إزاء الحضارة ، أي عندما يضع في كل تفصيل من حياته مضمونـه الأخلاقي والجمالي والعملي ، حتى يكون هذا التفصيل كأنه خطوة نحو التقدم .

وفي هذا المضمون مع ماتضعه فيه عبقرية ابن المستعمرات ـ هندوكيـاً كان أو بوذياً أو مسلماً ـ نجد ماتضعه فيه أيضاً العبقرية الغربيـة ، لأن الحضـارة الغربيـة ستبقى مثل ماسبقها من الحضارات ، مرحلـة في تـاريخ الإنسـانيـة ، وإذا كانت هذه المرحلة مرحلة فاصلة بمقتضى ارتباطها بعصر الذرة ، فإن الإنسـانيـة لاتـدين بالتالي بحضارتها إلى (نية) الغرب أو إلى عبقريته ، بل تدين إلى العنـاية الإلهيـة التي تضع مصيرها تحت قوانين سماوية تسير تاريخها .

☆ ☆ ☆

ثمن حضارتنا

الجمهورية الجزائرية في ٩ / ١٠ / ١٩٥٣

إن شيئاً يسمى (الضمير العالمي) أراد أن يدخل الوجود ، فقدم أوراق اعتماده ، قدم (ميثاق الأمم المتحدة) و (التصريح بحقوق الإنسان) .

ولكن الروح (الديمقراطية) التي أشرفت على تحرير هذه الوثائق التاريخية ، لم تكن ديمقراطية إلا اسماً ، إذ أنها نسيت فيما حررت أن تنص على قضية (الشعوب) وهكذا انصرف اهتمامها إلى (الدول) ، وفي غمرة ذلك نسيت البتة أن تذكر شيئاً بخصوص الإنسان الذي جعله الاستعمار في وضع شاذ يتمثل في ابن المستعمرات .

وهكذا لا نجد في اهتمام تلك الوثائق بمصلحة الإنسان (سواء باعتبارها من خلال الجماعات أو الأفراد) إلا مزيداً من التأكيد والتقرير لمصلحة الكبار .

وهذا (الضمير العالمي) الذي يلتزم السكوت بحكمة وهدوء ، عند الضرورة ، لا يجد شيئاً يقوله من أجل بعض (القضايا الداخلية) حسب تعبير الاستعمار في حديثه عن القضايا المتصلة بالبلاد المستعمرة ..

وهكذا أصبح البلد المستعمَر ، بمقتضى هذه المسلمة ، (ميداناً داخلياً) لا يتدخل فيه (الضمير العالمي) أي الأمم المتحدة .

وهذه المسلمة ينتج عنها مما ينتج تجاه البلاد المستعمرة : ألا تبقى سلطة يرجع إليها الشعب المستعمَر ، ولا قانون يحمي ابن المستعمرات .

إن هـذه النتـائج ، تثير الـدهشـة ، سواء اعتبرنـاهـا بـالنسبـة للجماعـات أو الأفراد ، لأن النظام السياسي إذا لم يكن تحت سلطة ورقابة الشعب ، فإنـه سوف ينقلب حتماً ضد الشعب .

وهذه الحقيقة ، إنما نراها بـأعيننـا في كل خطوة وكل كيلو متر عنـدمـا نسير على طرق البلاد الجزائرية ، فعندمـا يستوقف رجـال الـدرك الفرنسي عربـة على إحـدى هـذه الطرق ، وتبصر أعينهم أن السـائـق والمسـافرين من المسلمين ، فـإن تمثيلية غربية تبتدئ . فمجرد عمليـة الرقـابـة على الطرق تصبح إذن عمليـة تنقيب وفحص دقيق .

وإذا كانت العربة للنقل العام ، وبها عـدد كبير من المسـافرين ، فـإن هـذه التمثيليـة تتخـذ طـابع استفزاز ، وإرهـاب ومسـاومـة في وقت واحـد ، وتتـوجـه الرشاشات إلى الصدور وتصبح الكلمات قذفاً وشتماً في الوجوه .

ثم تنتهي التمثيلية بخاتمتها العادية : فيحرر رجـال الـدرك مخـالفـة لصـاحب العربة ، مخالفة تستمد حيثيـاتهـا القـانونيـة من اعتبـارات كثيرة : مثلاً لأن لأنف السائق زائدة لحمية .

ومن البـديهي ، أن هـذا الوضع (الـديمقراطي) الـذي يسيطر على البلاد ، يسيطر عليها تحت إشراف السلطات التي تراقب هذه العمليات في جميع الأنحـاء ، تراقبها في نطاق المديرية وفي نطاق الوطن بصورة عامة .

والصحـافـة الاستعماريـة تنقـل كل يـوم هـذه الأنبـاء ، وتصنف (القـائمـة الفخرية) لهذه الانتصارات المسلحة على الشعب الجزائري الأعزل ...

وفي ميدان آخر ، ميدان الاقتصـاد ، نجـد كل الآلات التي تحرك وتقود هـذا الميـدان ، تـوضـع بـالخصـوص في يـد (الأوربي) ، بينمـا تعطى الأولـويـة ،

والامتيازات الخاصة للمسلم في ميدان دفع الضرائب حتى إن قائمة (الأرباح غير المباحة) التي وزعت على سكان قسنطينة سنة ١٩٤٦ أو سنة ١٩٤٧ ، وكان مبلغها ٢٥٠ ألف جنيه (بعملة ذلك الزمن) ، وزعت في الحقيقة على التجار المسلمين بنسبة ٩٠ ٪ بينما لم يكونوا هم المنتفعين من تلك الأرباح خلال الحرب العالمية الثانية .

وأما في ميدان العمل ، فإن الطبقة الكادحة الجزائرية تعلم أي مكان تشغله في اهتمام أصحاب الأعمال الاستعماريين ، وهم الذين في أيديهم وسائل التشغيل جميعها ، إذ زيادة على إشرافهم على القطاع العام ، يتصرفون في أغلبية القطاع الخاص . وقد تأتيني في يوم واحد من جهتين مختلفتين أنباء ، تدل على أن العامل الجزائري يعاني وضعاً واحداً في أي ناحية من البلد : ففي مدينة الجزائر أو في مدينة سكيكدة يُرفض العامل المسلم كلما وجدت الفرصة لتشغيل الأوربي ، حتى لا يبقى مكان للأول إلا في الأشغال الشاقة ، في الزراعة وفي المناجم حيث يجد العامل المسلم من يشغله ، ولكن في أي جحيم !!

هذا بالنسبة للعموم ، أما بالنسبة للفرد على وجه الخصوص ، فالقضية أكثر حدة ودقة ، حيث (المعامل الاستعماري) يفرض على الفرد ، لتصبح أحياناً مواهبه العقلية غير ضرورية واجتهاده الشخصي فاقد الجدوى ، ولكيلا يشعر ابن المستعمرات أن الخبز (حق) مقدس يحققه له مجهوده وعرقه ، بل هو (منحة) يمنحها له المستعمِر .

ولكي يطبع الفرد بهذه النفسية ، نفسية العبد الذي يأكل من نعمة سيده ، فإن الوسائل كلها مباحة ، وعلى سبيل المثال : فإذا كان الفرد متعلماً ، فلا يقال إنه تعلم بل يقال في منطق الاستعمار : « نحن علمناه » .

ولا يقتنع الاستعمار بحرمانه من حق العمل في القطاع العام ، بل يتبعه

حتى في حياته الخاصة ، كي يمنعه من أن يتصرف في شؤونه ووسائله طبقاً لمصلحته ، إذا استطاع الفرد أن يُكوّن لنفسه هذه الوسائل .

وبما أن إرادة الاستعمار تقتضي وضع الإنسان في عالم الأشياء ، فإن حكمة إبليس تقتضي أن الإنسان الذي وضع هذا الموضع ، لا يجوز له أن يتكلم لغة الإنسان ، لأنه (شيء) ، والشيء لا يقول : فكري ، وأجرتي ، ولقمة عيشي .

ولست أدين ، فيما أقدم هنا ، إلى بعض آراء تُخطئ أو تصيب ، ولكن أدين إلى وقائع محددة شاهدتها بنفسي ، وسجلتها تجربتي الاجتماعية منذ ربع قرن .

وقد ابتدأت هذه التجربة وأنا شاب بقرية تبسة ، قبل أن أذهب إلى باريس للدراسة العليا ، فذهبت إلى مصلحة الطرق والجسور أسأل عن شروط المقاولة لنقل مواد البناء ، لأنني كنت أمتلك بعض وسائل النقل .

فعوضاً عن أن يعطيني المعلومات المطلوبة منه فضل من يتكلم باسم المصلحة ، أن يعطيني إرشاداً فقال لي :

ـ من الأحسن أن تبيع ما تملك من وسائل النقل إلى مسيو فلان ، ومسيو فلان .

وكان هذان المسميان من سكان المدينة الأوربيين . واستمرت هذه التجربة ، بطبيعة الحال ، حتى إنني لخصتها بعد ربع قرن ، في كتاب (شروط النهضة) في هذه الجملة ، « فهو يعيش كأن يداً خفية ، وتارة مرئية ، تشتت معالم طريقه ، وتبعد باستمرار أمامه العلامة التي تحدد هدفه ، حتى لا يدركه أبداً » .

وعندما أتأمل تفاصيل هذه التجربة بعد ربع قرن ، فإنني أدرك ما هو ثمن حضارتنا ، إنه ثمن باهظ ، لا يمكن أن يدفعه أحد ، ولا الاستعمار على وجه الخصوص .

الفصل الرابع

في حديقة الثقافة

- بين الأفكار الميتة والأفكار القاتلة
- اكتب بضميرك
- النقد السليم
- وحدة الثقافة في الهند
- تحية إلى داعية اللاعنف
- رومان رولان ورسالة الهند
- الأساس الغيبي لفلسفة الإنسان في الإسلام
- الدراسات الحديثة والتصوف الإسلامي

بين الأفكار الميتة والأفكار القاتلة

الجمهورية الجزائرية في ٥ / ٣ / ١٩٥٤

أهدي هـذه السطـور إلى إخـواني أعضـاء جمعيـة العلمـاء ، لأنهم أصحـاب الفضل والمزيـة في تكـوين جـانب كبير من العقل الجـزائري ، وفي تحضير رواد الثقافة في البلاد ..[١]

يبدو أنه يجب أيضاً علينـا أن نقـدر وأن نراقب بل أن نمسـك إذا مـا اقتضت الظروف ـ تنفسنا العقلي ، وأن نتخذ أشد الاحتياطات ضد بعض أسباب العدوى الخطيرة المحتملة ...

أمـا بـالنسبـة للتنفس الفيزيولوجي العـادي في جو ملوث أو مسمـوم فـالأمر واضح : إن الحضارة قد جهزتنا بالشيء الضروري ، أي بالقناع ضد الغازات ...

أما بالنسبة للتنفس العقلي ؟...

فليس المستر (ماك كارتي) هو الـذي يعرض علينـا القضيـة هـذه المرة ، بل تعرضنا لها صدفة في حديث دار بين أحد المثقفين بـالثقـافـة الزيتونيـة البحتـة ، وشاب تتسم شخصيته بملامح السائح الرحالة أكثر من طالب العلم ، وكنـا مجتمعين

(١) أراد صاحب المقـالـة أن يهـديهـا إلى جمعيـة العلمـاء المسلمين في الجزائر ، لأن ضرورات الصراع الفكري القاسيـة التي لاسبيل لشرحها هنـا ، كانت تملي ذلـك حتى لاتبقي للاستعمار الفرصة لتحويل معنى المقال إلى غير ما يهدف إليه صاحبه .
ولكن الغريب هو أن جمعية العلمـاء ـ وقـد سبق أن أهـديت لرئيسهـا أحـد كتبي ـ لم تجـد في المرتين كلتيهما الفرصة للشكر على الإهداء : حتى إنني لو كنت أجنبياً لقلت إن العلمـاء المسلمين الجزائريين لا يشكرون هدية الأفكار وإنما يشكرون هدية الأشياء ...

إثر حفلة أقامها بباريس (نادي الثقافة الإسلامية) الذي تأسس هذه الأيام بالعاصمة الفرنسية .

وكنت أستمع للحديث بكل اهتمام ، وكنت أنصت للمثقف الزيتوني وهو رجل يستهوي (المودة) ويتسم خاصة ـ حسبما كان يبدو لي ـ بأخلاق من يخدم الصالح العام بإخلاص ، ولكنني كنت أشعر أنه رجل قد ينام وعلى وجهه قناع الغاز ، لو سمع أن أحداً في العالم اكتشف الاكتشاف الشيطاني ألا وهو الغاز الخناق ...

وبعد كل مانقوله فيه فالأمر يكون هيناً ، لو كان يخص مشعوذاً يتمرن ـ كما يصنع أمثاله في الهند ـ من أجل أن يتصرف في وظيفة تنفسه ، طبقاً لما تقتضيه حاجة الشعوذة على أخشاب المسرح ، ولكن عندما تكون القضية قضية رجل مسخر لخدمة الصالح العام بكل إخلاص فالأمر فيه نظر ، لأن الرجل بمقتضى وظيفته يقوم بدور ملقن الصبيان فهو يلقنهم أفكاره الخاصة ، ومن بينها كيف يمسكون عقولهم عن التنفس عندما يشعرون بأخطار هي في الواقع وهمية .

وإننا لنتصور هذه المأساة إذا قدرنا الأشياء في الإطار البيداغوجي ، لأن كل عملية لخنق التنفس العقلي تؤدي إلى تكوين العقل المختنق ...

ولكن فلنعد إلى الحديث الذي يشرح هذه الخواطر : لقد تناول حدثاً أدبياً ورد في شعر شوقي ، الذي صاغ في إحدى قصائده تحية شعرية وجهها إلى باريس ، إلى روعة صورها الفنية وإلى جاذبيتها الفكرية .

ويبدو أن هذه الشاعرية الفياضة عند الشاعر العربي الكبير ، قد خدشت الحساسية الكبيرة عند رجل يشعر بلعنة الاستعمار بصورة ممتازة ... حتى إنه لم ير في الأبيات المتّهمة إلا باقة من الشعر تهدى إلى الاستعمار الفرنسي نفسه . فمن نخطّئ ؟ أهذه الشاعرية الفياضة أم هذا الشعور الممتاز ؟

قد كان هذا السؤال هو موضوع الحديث بين الطالب الرحالة والأستاذ الزيتوني المحترم ، وكان رأي هذا الأخير : أن الخطأ يقع على كاهل الشاعر المتهم :

لأننا نجد ـ والرأي رأي المتحدث ـ نجد في هذا الشعر الأثر المؤسف لتلك الثقافة الغربية التي فرضت جاذبيتها على ٩٠ ٪ من الطبقة المثقفة المسلمة ، فوضعتهم هكذا تحت تصرف الاستعمار .

فالخطر في هذا الحكم قد بدا لي متزايداً بقدر ما رأيته مُقَعَّداً على ملاحظة صحيحة ، لأنني لو أعدت النظر في تقدير المتحدث فربما لم أجده قد بالغ فيه ، بل على العكس ، لقد لطفه ، إذ أنني أعد (فراغ المثقفين) عندنا ، من أكبر مشكلاتنا اليوم .

ولكننا ، عندما نقدم مقدمات صحيحة ونستخلص منها استنتاجات خاطئة ، فإننا نتجنب خطأ لنقع في مثله أو أشد منه ، كذلك الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ الكريم دون أن يشعر . والمهم في الأمر هو أن نبين النتائج الوخيمة التي تنتج ، عن تفسير مخطئ ، في توجيه العقول في بلد معين .

فكأن الحديث يدور ـ وهنا كل أهميته ـ في القضية الثقافية ، لكنه يتناولها على الهامش لا مباشرة .

لقد خصصنا لهذه القضية مقالة تناولتها في عمومها[1] ، وألمحنا فيها إلى جانب منها نسميه الجانب المرضي في الثقافة ، وقد حاولنا في مقالتنا هنا تحديد النوع الجرثومي الذي يعزى إليه هذا الجانب ، فأطلقنا عليه (الأفكار القاتلة) أي تلك الأفكار التي نستعيرها من الغرب ، كما أننا سوف نطلق في هذه السطور اسم (الأفكار الميتة) على ما يجول بأنفسنا من أفكار فقدت الحياة ، كتلك الأفكار التي يبديها الأستاذ (الزيتوني) في الحديث الذي كنا نستمع إليه في مقهى

(١) لم نجد هذه المقالة تحت أيدينا .

بباريس : وربما يمكننا أن نلاحظ ، ونحن في سياق الحديث ، أن هذه الأفكار وتلك يعبر كل منهما عن جانب من مأساة البلاد المستعمَرة : الجانب الذي نسميه الاستعمار والجانب الذي نطلق عليه (القابلية للاستعمار) .

ولكن لو وجب علينا أن نميز بين الفئتين لقلنا إن (الأفكار الميتة) التي ورثناها من عصر ما بعد الموحدين ، أخطر علينا من الفئة الأخرى .

ويكفينا ـ كي نتأكد من هذا ـ أن نلقي النظر على قائمة الأفكار التي فعلت فعلتها في التاريخ فقتلت المجتمع الإسلامي . إن هذه الأفكار ، التي لا زالت ـ باعتبارها أصبحت ميتة ـ تكوّن الجانب السلبي في نهضتنا ، قد كانت تكوّن الجانب الإيجابي أو (القتال) في عهد التقهقر والأفول الذي مرَّ على الحضارة الإسلامية ، هذه الأفكار إذن كانت قتالة في مجتمع حي قبل أن تصبح ميتة في مجتمع يريد الحياة ، غير أنها بكل تأكيد لم تولد بباريس أو لندن بل ولدت بفاس والجزائر وتونس والقاهرة ...

لم تنشأ في مدرجات أكسفورد والصوربون ... ولكنها نشأت تحت قباب جوامع العالم الإسلامي وفي ظل صوامعه .

هذه حقيقة في منتهى الوضوح : إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله ، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي (أفكاراً ميتة) تمثل خطراً أشد عليه من خطر (الأفكار القاتلة) ، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته ، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل ، إنها تكوّن ما لم نُجْرِ عليها عملية تصفية ، تكوّن الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل ، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه .

يجب أن نطبق تفكير باستور في المجال البيداغوجي كي ندرك هذا الجانب

المرضي في مشكلة الثقافة عندنا ، وقد أعطانا (الكاشاني) هذه الأيام صورة عن هذا الجانب في المجال السياسي ، إذ تمثلت فيه الجرثومة الداخلية أو (الفكرة الميتة) التي خدعت وخدرت قوى الدفاع الذاتي في ضمير الشعب الإيراني ، ومن الجدير بالملاحظة أن الدكتور (مصدق) لم يسقط تحت ضربات الاستعمار ـ المتمثل في أكبر شركة بترول في العالم ـ ولكنه خرَّ تحت ضربات القابلية للاستعمار ، الناطقة باسم الله والوطن .

وإننا ندرك في ضوء هذا المثال الحدة التي تتصف بها ردود الأفعال دفاعاً عن الذات ، عند الرجال الذين يمثلون الثورة في القاهرة أو في دمشق . كما ندرك أن المعركة الحقيقية ليست هي التي تجري على حدود هذه الثورات مع الاستعمار ، ولكن المعركة في داخل البلاد مع القابلية للاستعمار تلك القابلية المتمثلة في بعض الشخصيات الإقطاعية وبعض العادات الرجعية ، أو في داعية يدعي أنه يمثل المهدي في تلك البلاد نتوقع شره .

ولنحدد مرة أخرى مكاننا في هذا العرض . إن مظهر (الأفكار الميتة) لم يكن هو الموضوع الذي أثاره الحديث الذي أشرنا إليه ، ولكننا قد رأينا من خلال ما تقدم ، كيف كان الحديث الذي يضيء المظهر الآخر (الأفكار القاتلة) بضوئه الخاص ، حتى نرى ما بينهما من اتصال وثيق ، سيزيده وضوحاً ما سيتبع .

فلقد نجد أحياناً دور (الأفكار الميتة) ودور (الأفكار القاتلة) يتمثلان في شخصية واحدة تمثل المظهرين ، لأنها تحمل الجرثومة الموروثة في كيانها ، تلك الجرثومة التي (تمتص) بطبيعتها ، على صورة ما ، الجرثومة المستوردة وتقرها في المجتمع الإسلامي المعاصر .

والشيء الذي يغيب على الأستاذ (الزيتوني) الذي يخطّئ شوقي ، هو ذلك

الارتباط التكويني بين الجانبين المرضيين في الثقافة الإسلامية في طورها الراهن .. ولست أشعر أنني أفدته عندما أردت خلال الحديث لفت نظره إلى هذا الوضع الخطير في عالم أفكارنا ، مع أنني تعمدت في كلامي معه القياس على المبدأ المشهور : « إن الإناء يرشح بما فيه » ، كي يفهم الأخ المستمع أن فكر عهد ما بعد الموحدين مستعد لكي (يمتص) الموت من جانب لأنه من جانب آخر يرشح به .. وهذه الظاهرة المزدوجة تثير مشكلة من نوع خاص محددة بصورة معينة لا يجوز لنا أن نتناولها في صورة غيرها كيلا تنعكس القضية ، فلا يجوز لنا مثلاً أن نتساءل : لماذا توجد عناصر فكرية قاتلة في الثقافة الغربية ؟. بل فليكن سؤالنا في صورة أخرى : لماذا تمتص بالضبط طبقتنا المثقفة في البلاد الإسلامية هذه العناصر القاتلة ؟

فهذه هي الصورة الصحيحة للمشكلة ، فمن الواضح جداً أن المسؤول في الأمر ليس مضمون الثقافة الغربية الذي يتضمن فعلاً هذه الأفكار الخطيرة ، ولكن اتجاه فكر ما بعد الموحدين الذي يدفع هذه النخبة إلى انتقائها . والواقع أن هذه النخبة تقوم بعمل انتقاء واختيار في مضمون ثقافي لا يتضمن الأفكار القاتلة فحسب ، إذ أنه ـ بكل وضوح ـ صالح لحضارة حية تشمل شروطها الأدبية والمادية حياة وتطور مئات الملايين من البشر ، الذين بيدهم اليوم مصير الإنسانية .

وعليه فإن (الأفكار القاتلة) التي نجدها في مضمون هذه الحضارة ، ما هي إلا إفرازاتها وجانبها الميت ، الجانب الذي يمتصه فكر ما بعد الموحدين في جامعات العواصم الغربية .

لماذا نركن إلى هذه العناصر القاتلة ؟ لأن موقفنا من مشكلة الثقافة ليس صحيحاً لا من الناحية الفكرية ولا من الناحية الاجتماعية[1] .

(١) قد بينا هذا الضعف في كتاب (مشكلة الثقافة) .

ومن هذا الانحراف المزدوج ينتج انحراف آخر في موقفنا ، عندما نريد البت في الموضوع . إننا نصدر حكمنا فيه تبعاً لمن يذهب إلى البلاد الغربية ، إما في وضع (الطالب المجتهد) كما يمكن أن نتصور بعض (الباشوات) في عهد الدراسة ، وإما في وضع (السائح المهتم) كما نتصوره في شخص فاروق من خلال زياراته إلى عواصم أوربا .

فلا شك أن هاتين الحالتين تمثلان الوضع الذي يكون عليه النموذج الاجتماعي الذي يكون ٩٠٪ من (النخبة) الإسلامية المحتكة بالثقافة الغربية .

وفيما يخصني فقد تعرفت بالحي اللاتيني على أجيال من هذين النوعين ، وقد هممت أحياناً (مع صديق جزائري يدرس الفلسفة) بفهم نفسيتيهما حتى نتكهن ، بما سوف يكون مركزهما الاجتماعي وما سوف يكون موقفهما من مشكلة الثقافة أي بالتالي موقفهما من مأساة البشرية .

ولا شك أن نموذج (السائح المهتم) كان مهتماً جداً بالجانب التّافه والتائه من الحياة الغربية : في مقهى أو في مرقص ، أي في كل مكان تتحلل فيه الحضارة وتنتهي فيه إلى مخلفاتها (القتالة) في مزبلة .

ومن ناحية أخرى فإنك تجد النموذج الثاني منغمساً في الجانب التجريدي والنظري من الحضارة الغربية : منكباً هنا على كتاب عاكفاً هناك في مكتبة ، مرابطاً من جهة أخرى في كلية ، أي في كل مكان تتقطر فيه الحياة الغربية إلى خلاصتها العلمية ، مع عناصرها القاتلة أحياناً والمقتولة أحياناً أخرى ... في جومقبرة .

وعندما يحاول (الطالب المجتهد) الفرار من هذه المقبرة فإنه يذهب يتسلى في قاعة برلمان أي إلى مقبرة أخرى .

فهذا هو واقع الأمر ، من الناحية التحليلية ، بالنسبة إلى ٩٠٪ من النخبة المثقفة في العالم الإسلامي .

ولكن ما هو الواقع من الناحية الأخرى، ناحية التركيب ؟

إن التاريخ لا يهمل شيئاً ، بل يجمع معطيات الواقع كلها في معادلة واحدة :

فكذا مرقصاً + كذا مقهى + كذا كلية + كذا برلماناً = تحللاً تاماً .

وهذه المعادلة تصور الطامّة الكبرى التي تهدد كيان العالم الإسلامي اليوم ... والآن يبدو لي أن خطأ الأستاذ الزيتوني قد اتضح . فهو يخلط بين معطيات الحضارة التي تحلل الذرة ، وبين ما تعطيه لنا ، أو على وجه الدقة ، ما نأخذه منها من عناصر تحلل الأخلاق ...

الأمر يبدو هنا في منتهى الوضوح . فلو كان مضمون الحضارة الغربية لا يحتوي غير (الأفكار القاتلة) التي نستعيرها منها فإن خطرها يتجلى أولاً بالنسبة إلى أوربا ، حيث يجري مفعولها بالنسبة إليها قبل أن يجري علينا في تلك المعادلة التي أشرنا إليها .

ومن هنا يمكن الوقوف عند نتيجة أولى . فموقفنا إزاء مفهوم الثقافة بصفة عامة ، والثقافة الغربية خاصة ، هو السبب الرئيسي في الشر كله .

وإذا صحت هذه الملاحظة بكل دقة نظراً لما قدمناه ، فإن صحتها تزيد ، لو صح التعبير ، إذا عقدنا بعض موازنات وجيهة .

١ - بالنسبة إلى أفراد مختلفة في مجتمع واحد - هو المجتمع الإسلامي - إننا نجد في طرف هذا المجتمع مفكراً من حجم محمد إقبال ، وفي طرفه الآخر قافلة المثقفين[1] ، والاختلاف بين النموذجين اختلاف فردي ، ناتج عن أن إقبال استطاع ، لا شك تصفية (الأفكار الميتة) المشحونة في نفسه عن طريق الوراثة الاجتماعية ، حتى إن موقفه من مشكلة الثقافة تغير كلياً ، كما نتصور ذلك من

(١) ترجمة كلمة Intellectomanes من وضع صاحب المقالة في كتاب (شروط النهضة) .

خلال ما كتب ، لأننا لا نجده قد (امتص) من الثقافة الغربية عناصرها القاتلة ، بل امتص منها عناصرها الحية ، المحيية ، التي نجد أثرها ، بكل تأكيد ، في محاولته لـ (إعادة بناء الفكر الإسلامي) .

٢ ـ وبالنسبة لمجتمعين مختلفين ـ المجتمع الياباني والمجتمع الإسلامي على سبيل المثال ـ فإنها دخلا المدرسة الغربية في الوقت نفسه تقريباً ـ حوالي سنة ١٨٦٠ ـ ولكن الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هي أن النتيجة اختلفت تماماً . إذ نجد بعد قرن (معجزة اليابان) في ميدان الفن والصناعة والاقتصاد ، ومن طرف آخر في المجتمع الإسلامي ، نجد دون ريب ، مجهوداً لا ينكر فيا نسميه (النهضة) ولكنه مجهود تشله (الأفكار الميتة) الموروثة من عهد ما بعد الموحدين .

فمعجزة اليابان لا تفسَّر قطعاً إلا بموقف فيه فعالية أكثر اتخذه اليابان من الثقافة الغربية ، لأنه تخلص من الأفكار الميتة الموروثة من عهد (الشوغون) ، ولا يمكننا على كل حال ، أن نفسرها بأن الاستعمار أعطى للنخبة اليابانية أفكاراً مثمرة خلاقة ، وأنه على العكس يعطي لـ ٩٥٪ من النخبة المسلمة (الأفكار القاتلة) والعقيمة ...

وعليه فإنه من الواضح أن القضية غير عائدة إلى طبيعة الثقافة الغربية ، ولكنها تعود إلى طبيعة صلتنا بها ، وهذه الصلة لا تحددها غير وراثتنا الاجتماعية ، التي لم نتخلص بعد من تأثيرها ، بل على وجه الخصوص هي التي تملي اختيار (السائح المهتم) في المزبلة واختيار (الطالب المجتهد) في المقبرة .

فكلاهما ، بمقتضى وراثته الاجتماعية ، لا يذهب إلى المهد الذي تولد فيه الحضارة ، وإلى المصنع الذي تصنع فيه ، ولكنهما يذهبان : أحدهما إلى الأماكن التي تتعفن فيها ، والآخر إلى الأماكن التي تقطر فيها .. أي أن كليهما يذهب حيث تكون الحضارة فاقدة الحياة .. لا تعطيها .

ومن هنا تبدو الخصومة بين شوقي وغريمه في منتهى الوضوح ، فبقدر ما تكون (الأفكار القاتلة) هي التي أوحت إلى الأول مدحه لباريس ، أو تكون (الأفكار الميتة)هي التي أوحت إلى الثاني نقده ، فإننا سنعرف من يكون منهما المخطئ .

لكن الخصومة كما علمنا مما تقدم أوسع نطاقاً من ذلك ، إنها منوطة بموقفنا ـ أخلاقياً واجتماعياً وفكرياً ـ من مشكلة الثقافة .

ولست أدري إذا أقنعت هذه الاعتبارات الأستاذ الزيتوني عندما كنت أعرض مجملها في الحديث . ولكنني عندما انتهيت من الحديث ، رأيت أحد المستمعين ، وعليه ملامح العامل البسيط يرمق الزيتوني ، ويرمقني ويرمق الطلبة الموجودين وفي نظره شيء من الخجل ، كأنما يستحي من أن يطأ أرضنا ، أرض (النخبة المثقفة) ثم قال : أريد أن أقول كلمة !!

فتنازل جمعنا إلى استماعه ، فقال :

أعتقد أن القضية تشبه قضية التطعيم ، إنه من المعلوم أن العرق المنقول إلى شجرة لا يطعم ثمار هذه الشجرة بل إنه يطعم ثمار الأصل الذي نقل منه .

لست أعرف مقدار صحة هذه الاستعارة بالنسبة إلى نظرية (مندل) في علم التلقيح والوراثة أو نظرية ليسكنو ، ولكن شعرت ، بحياء ، أن هذا الرجل البسيط أدى لنا درساً في قضية معقدة ، وفَصَلَ فيها بجملة واحدة تغنينا عن الاعتبارات الطويلة التي قدمتها .

☆ ☆ ☆

اكتب بضميرك

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/٦/٤

لا ينبغي لمن يكتب أن يكون مجرد آلة كاتبة ، تنقل لنا (نسخة) دون أن تقدر للكلمات التي كتبتها أي نتيجة اجتماعية . إن على من يكتب ، واجباً إزاء الكلمات التي يكتبها ، يجب عليه أن يتتبعها ، خارج مكتبه ، في معركة الحياة والصراع الفكري ، أن يتتبعها في عملها في المجتمع ، يجب عليه ألا يغفل تلك الصلة ـ صلة السبب بنتيجته ـ التي تنشأ في إطار مشكلة اجتماعية واحدة ، إذ تنشأ بصفة أوتوماتيكية فكرة هي علاقة بين من يكتبها وبين من يصيرها أو يحاول أن يصيرها عملاً . ومن هنا ينشأ واجب آخر لمن يكتب ، هو أن تكون له فكرة صحيحة بقدر الإمكان عن شخصية القارئ ، الذي يقوم بدور رئيسي في تقرير الأفكار الاجتماعية ، لأنه هو العامل المحول الذي يحول الفكرة فيصيرها واقعاً محسوساً في سلوكه أو شيئاً ملموساً في محيطه .

وهذه الصلة ليست ذات اتجاه واحد بل اتجاهين : فإذا كان الكاتب يوجه القارئ بما يكتب ، فإن القارئ يوجه أحياناً الكاتب بموقفه إزاء الأفكار .

فرجل الشعب قد تكون له في مشكلة معينة آراء أقرب للصواب من الرجل المثقف ، لأن الأول طليق النظر لا يحد بصره منهج معين ، بينما ينظر الثاني إلى الأشياء من خلال منهج يضع على بصره (شوافات) كتلك التي توضع على عيني البغال أو الحمير ، كي لا ترى ما هو خارج عن طريقها .

والواقع أن القارئ في الجزائر غالباً ما يكون رجل الشعب لا رجل (النخبة) ، فالنخبة عندنا لا تشعر بحاجة للمطالعة بعد تخرجها من الجامعة ، وعملها الفكري ينتهي ـ لأسباب اجتماعية ونفسية موروثة ـ عند تحصيل الشهادة . أي عند النقطة التي تبتدئ منها النخبة ، في البلاد الأخرى ، العمل الفكري الجدي ...

وبما أن رجل الشعب هو الذي يقوم بدور (القارئ) في الجزائر ، فإنه يجب علينا أن نقدر الصعوبات التي تعترضه في هذا الدور . والواقع أن هذه الصعوبات التي تعترض رجل الشعب بصفته (قارئاً) ليست من الجانب الفكري ، فرجل الشعب على غاية من الذكاء ، لأنه يمارس الأفكار بقلبه وعقله معاً ، بينما لا يقرأ (المثقف) عندنا إلا بعقله . فرجل الشعب يتمتع إذن بالبداهة الصادقة ، وقوة الإدراك ، لأنه يرى الأشياء بنور قلبه الصادق ، شريطة ألا تعترضه الصعوبات الشكلية ، الناتجة عن تعقد اللغة المستعملة ، وتشابه المفردات ، وغموض بعض الكتاب المعجبين بسحر البيان وزخرف الكلام .

أما فيما يخصني ، فربما أعطيت في بعض الظروف دروساً لرجل الشعب الذي يقرأ ، لكنني كثيراً ما أخذت منه دروساً في ظروف أخرى[1] وفي موضوعات شتى ...

ومهما يكن الأمر ، فإن القضية تتضمن وجهين : فإذا عددنا القارئ (تلميذاً) من ناحية ، فإنه يجب أن نعده (أستاذاً) من ناحية أخرى ... في الظروف التي يدلي فيها بأفكاره ، وهو يدلي بها دائماً في منتهى الوضوح .

أليس له الحق إذن أن يطالبنا بالوضوح نفسه ، عندما نقدم له شيئاً من أفكارنا ؟.

---

(١) مثل الظروف التي جعلتني أستمع لتعليق العامل الجزائري الذي أشرت إليه في مقالتي السابقة .

فهذه الاعتبارات كلها قد أوحت لي بها ظروف مختلفةٍ من ظروف الصراع الفكري ، من بينها تلك المقالة التي نشرتها تحت عنوان (أقلام وأبواق الاستعمار) .

لقد هدفت في كتابة هذه المقالة إلى أن أبين أن الاستعمار تواق إلى الانسجام مع الظروف الجديدة ، وكيف يختار الوسائل المناسبة لهذه الظروف ، أو بعبارة أخرى ، كيف يتقدم ويتحضر ؛ ولكن الصحيفة التي نشرت مقالتي أرادت أن يكون بجانبها مقالة افتتاحيّة بعنوان (تقديس الشخص) ، كأنها أرادت بذلك إلقاء أضواء هامشية على مقالتي ، إلقاءً يتوهم معه القارئ الشعبي ، أن المقالتين متقاربتا المعنى والهدف ، بينما الأمر على خلاف ذلك تماماً . إذ تهدف مقالتي إلى لفت نظر هذا القارئ إلى خطة جديدة يتبعها الاستعمار في الصراع الفكري في بلادنا ، حيث يجد حتى في صفوف شبابنا المثقف ، الطالب الذي يتسخر ليكون بوقاً من الأبواق ، أو قلماً من الأقلام ، التي يستخدمها الاستعمار للتعبير عن فكرته ؛ بينما تصف المقالة الأخرى عادة متغلغلة في نفسية (القابلية للاستعمار) ومشخصة في (تقديس الشخص) . وكأنما (القلم) الذي قام بكتابة هذا المقال ، كان يهدف إلى لفت ذهن القارئ الشعبي ، من موضوع معين إلى موضوع غيره ، في المعنى والاتجاه ، فيلتبس الأمر على هذا القارئ وتنشأ صعوبة في إدراكه للأشياء .

وقد وقع فعلاً هذا الالتباس في ذهن قارئ شعبي دار بيني وبينه الحديث صدفة في الموضوع ، فرأيته فهم المقالة التي نشرتها لا وفق نصها ومعناها ، ولكن في ضوء ما نشر بجانبها ، فأدركت أن الاستعمار يحكم الخطة في الصراع الفكري .

☆ ☆ ☆

النقد السليم

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٤/١/٢٢

إنني لا أخل ، فيما أعتقد بمصلحة القارئ ، إذا رجعت إلى قضية مررت عليها مرّ الكرام في المقالة التي تحدثت فيها عن العطلة في بلادنا ، وأعني بذلك قضية النقد التي ألمحت إليها في تلك المقالة .

ولكن يجب أولاً أن نلاحظ شيئاً ، نعتقد أنه في غنى عن لفت النظر لأنه في منتهى الوضوح ولابأس إذا لفتنا النظر إليه ، وهو أن الشهادة بالفضل إلى هيئة منظمة معينة لا تقتضي بالضرورة الانتساب إلى هذه الهيئة أو المنظمة .

وفيما يخصني لقد بذلت شطراً من حياتي في سبيل الحركة الإصلاحية ، وشهدت في مناسبات مختلفة بالفضل لجمعية العلماء التي قامت في الجزائر بنشر العلم الدين ، وتكلمت مرات في معاهدها دون أن أكون عضواً من أعضائها[1] .

إن عصرنا يقدر كما هو معلوم ، فكرة (الالتزام) ، والأدب الملتزم أي الالتزام وف هيئات معينة ، ولكنني أشعر بأن المثقف قد يؤدي رسالته في حياة ، الاجتماعية بفعالية أكبر ، من دون أن يكون ملتزماً بهذا النوع من الالتزام ، نخرطاً في إطار معين حيث يجد نفسه أحياناً ملتزماً نحو الحزبية .

وعلى كلٍ فيما يتصل بفعالية الكاتب على وجه الخصوص ، فإنني على رأي

وعلى الأصح دون أن تدعوني هذه الجمعية للإسهام في شؤونها الإدارية ، حتى لو قدمت لها الطلب من أجل ذلك في بعض الظروف القاسية في حلبة الصراع الفكري .

(دو هامل) فيما يرى ، بالنسبة إلى توزيع المسؤوليات في وطن معين ، وإنني أستعير منه هذه الخاتمة القوية لكلامه عندما يقول : « وعليه فإن الكاتب إذا أراد أن يؤدي رسالته كما ينبغي فإنه يجب عليه أن يبقى حراً ومنعزلاً ، أو بعبارة أخرى لا منتمياً » .

ومهما يكن من الأمر فإن هذه الرسالة في جوهرها وبصورة عامة منوطة بموقف الفرد من الجماعة .

إنه من شر ما يكون بالنسبة إلى مصلحة وطن ، أن يكون هذا الموقف مجرد تقليد . فإذا تخلى النقد عن حقه للتقليد والرضا بالواقع فإن القضية تنتهي عند التسوية ، من أسفل ، في الحياة الأخلاقية والفكرية ، فتجمد الأفكار والطاقات الاجتماعية ، وينتهي التقدم في الوطن .

إن البلاد التي أدركت هذا الخطر - كإنجلترا - تعتزم على تكوين معارضة بجانب الحزب الذي يتولى الحكم ، لتقوم في النطاق السياسي (بواجب) النقد . وليس هذا (الواجب) بالشيء البسيط ، فهو يتضمن معنيين ، أحدهما يتصل بالجانب الأخلاقي عندما يؤدي النقد وظيفة (الشهادة) للحكم القائم بأنه أصاب ، ويتصل الثاني بالجانب الفني في صورة (حكم) على أعمال الذين بيدهم مقاليد السياسة .

وهكذا ترتبط فعالية النقد بشرطين : الإخلاص للشهادة ، والكفاءة للحكم .

ولا يغني شرط منهما عن الآخر ، إذ لو توافرت الكفاءة اللازمة للجانب الفني ، وحدها ، فربما تكون (المهارة) في السياسة مجرد شعوذة ودجل ، كما لو توافر الشرط الأخلاقي (الإخلاص) دون الشرط الفني ، فمن الممكن أن تكون السياسة في أيدي صبيان مخلصين في منتهى البساطة .

وفي كلتا الحالتين ، فإن (النقـد) لا يقوم بـدوره فهو لن يقوّم اعوجـاجـاً ، ولن يصلح فساداً ، لأنه أعرج لا يمشي على رجلين ، فلا يـأتي بمـا يقوّم الأشيـاء ، ولا بما يكمل ويوسع معانيها ، ولا بما يهدي الأعمال إلى طريق الرشاد .

والشيوعيون تمرنوا أكثر من غيرهم على هذا الأسلوب وأدركوا هذه الحقـائق ، لأنهم مارسوا النقـد ، ومـا يسمونـه (النقـد الـذاتي) على وجـه الخصوص ، الـذي يكشفون به ما يطلق عليه عندهم (النزعة الانحرافية) .

ولكن هذه الاعتبـارات ، المتصلـة بـالجـانب العملي في السيـاسـة تفرض على النقد ألا يكون غامضاً ، ملتويـاً ، مغلقـاً كلغز يكون مفتـاحـه في يـد صـاحبـه فقط ... بل يجب أن يكون برهانـاً واضحـاً بينـاً مفتوحـاً لكل عقل حتى يفهمـه (القارئ) وهو غالباً مـا يكون رجل الشعب ، دون تكلف ، يفهمـه كي يستفيـد منه عن علم أو ليرفضه عن يقين .

إنـه من الممكن أن يرى أحـد القراء اعـوجـاجـاً فيما أكتب ، وأن يتفضـل بتوجيه نقده لي ، فمرحباً بهذا النقد وشكراً لصاحبـه مـادام واضحـاً في مسوّغـاتـه حتى أستفيد منه ، لا مجرد قول تمليه وتصحبه العاطفة .

وفيما يخصني فإنني ـ بقدر المستطاع ـ كنت دائماً حريصاً على أن أقدم للقارئ مـا يمكن من الـوضـوح فيما أكتب ، حتى أمكنـه من أداء واجب النقـد ، إن رأى لذلك مسوّغاً .

ويبقى أن النقـد يجب ألا يكـون مـوقف عـداء يتبـادل فيـه خصمان الشتم والضرب بالأقلام والجمل ، بل موقفاً فكرياً يتبادل فيه اثنان آراءهما .

فعندما أنتقد نشاطنا الاجتماعي وأتهمـه بـ (الـذّريـة) أي بعـدم الاتصـال في الجهد والمبادرات ، فإنني مع كل أسف لا أتصور وضعاً بل أصفه كما هو ، ذلك أنني

أرى نشاطنا يبدأ فجأة ويذهب كذلك كأنه وثبة برغوث ... ولنعتبر على سبيل المثال كم مجلة ظهرت في بلادنا من نهاية الحرب ثم اختفت بالسرعة نفسها .

ولكن فلنغض الطرف عن مثل هذا السؤال ، حتى لا يقال إنني أنتهز فرصة ، فمن يكتب حسب الفرص فهو غير جدير بالكتابة ، وربما هذا ما جعل (دو هامل) يقول ، فيما يخص مهمة الكاتب : « إنها ليست مهمة يتمتع صاحبها بالراحة » ...

ولكن ماذا كان يقول لو كانت له تجربة من يعيش في البلاد المستعمَرة ؟

☆ ☆ ☆

وحدة الثقافة في الهند

الجمهورية الجزائرية في ١٩٥٣/١٢/١٨

لقد اطلعنا في أحد أعداد (لوموند) الأخيرة على صدى مناقشة دارت ، في المنبر العام بهذه الصحيفة على جانب من اللياقة والكياسة دون أن تضيع فائدتها الفكرية ، إذ تناولت موضوعاً هو تفسير فكرة (الساتياجراها) أو طريق الحقيقة ، أي الطريقة التي اتبعها غاندي في النضال ضد الاستعمار الانجليزي .

فالقارئ الفرنسي يتهم غاندي بأنه يتبع في الحقيقة سياسة الفرص أي سياسة انتهازية في نظره ، وربما جنح إلى العنف لو سمحت به الظروف أو اقتضاه الموقف .

لكن قارئاً هندياً يرد بكل حرارة ، على هذا الاتهام ، الذي يعطي لبطل (الساتياجراها) واللاعنف صورة الرجل ذي الوجهين .

من يقرأ هذه السطور يشعر بأنها تتضمن أكثر من مجرد مناقشة بين رجلين ، وإدلاء كل منهما برأيه في قضية معينة ، إنها تعبر في الواقع ، عن مقابلة وموازنة ، بين شخصين محددين ، بين مركّبين معينين ، موازنة مباشرة ، وإن كانت غير منتظرة ، تطرح فجأة على بساط النقاش قضية في غاية الأهمية ، لأنها تتصل بمشكلة الثقافة من حيث الوفاء للمبادئ بصورة مطلقة ، أو حسب الظروف أو بعبارة أخرى من حيث وحدة مسوغاتها أو تنوعها حسب الظروف في مجتمع معين . وتشعرنا هذه المناقشة ، عن طريق المشاهدة تقريباً بحدة هذه القضية في

العالم ، وتعطينا فكرة ، مهما يكن فيها من الوضوح أو الغموض ، عن موقف الإنسان الهندي إزاءها .

ولقد سبق لنا في مقالة نشرت[1] منذ أشهر ، أن بينا بقدر الإمكان ما يستحق هذا المظهر في الثقافة من اهتمام ، تاركين لفرصة أخرى توضيح شأنه في ثقافة الهند على وجه الخصوص .

ولا شك أن موضوعاً كهذا يستحق دراسة متعمقة ، ولكننا نقتصر هنا فقط على تقديم بعض المعلومات للشباب الجزائري ، كي نلفت نظره إلى إحدى المشكلات الرئيسية التي تواجهها الإنسانية في القرن العشرين .

إنه لمن المعلوم عن أي بلد (عصري) أن الحياة الفكرية ـ التي تتضمن مجموعة الأفكار والمبادئ المتعارف عليها ـ لا تطابق فيه بالضبط الحياة العملية ، التي تتضمن الواقع والوقائع (والواقع السياسي على وجه الخصوص) ، تضمّناً يشعر معه الفكر عندما ينتقل من مجال المبادئ إلى مجال الواقع أنه يخرق حدوداً تفصل بين عالمين .

بينما القضية على غير هذا المنوال في بلاد نهرو ـ بالنسبة إلى جوهر الأشياء إن لم نقل إلى صورها وأشكالها ـ لأنها احتفظت بوحدتها احتفاظاً لا يفصل معه بين صورة البلاد التقليدية وصورتها العصرية فاصل أكيد ، فالروح التي كانت تشع في عصر الفيدا في المواقف الصوفية ، هي التي تشع اليوم في المواقف السياسية في موقف الملايين من الهنود الذين يتمسكون بمبدأ الساتياجراها .

وهذا الاتصال في التطور ليس بالظاهرة السيكولوجية الزهيدة ، فلا تثير الاهتمام والتأمل ، فهي ـ حسبما يبدو ـ تعزى إلى عوامل متعددة وإلى اثنين خصوصاً :

(١) لم نجدها فيما تحت أيدينا الآن .

(١) الإطار الأخلاقي الذي تكونت فيه الهند (العصرية) .

(٢) والأوضاع النفسية الخاصة بشخصية ممتازة ، (غاندي) الذي تقمص شخصية الهند المعاصرة وأضفى عليها مما وهب له من صفات خاصة ، ووجهها بما أوتي من اتجاه روحي ، طبع بطابعه الشخصي رسالتها في العالم .

أما الإطار الأخلاقي فهو يتمثل في نهضة روحية بدأ بصيص فجرها في الروح الهندي ـ حسبما يبدو ـ باتصال هذا الروح بثقافة الغرب ، ذلك البصيص من النور الذي أضاء على وجه الخصوص حياة (فيفيكانندا) وإنتاجه الفكري . أي باكورة الإنتاج الفكري في الهند بعد أفول طويل .

لقد كان هذا البعث فعلاً في غرة هذا القرن ، وفي مجال الروح بالذات في صورة بعث للفكر التقليدي ، أي في وقت سيكون فيه هذا البعث الروحي المقدمة التي تفرضها الظروف لليقظة السياسية التي ستتبع وستصنع الهند (العصرية) ، حتى يمكن القول إن الهند الجديدة هي الهند القديمة ، لا في ظاهر الأشياء ولكن في جوهرها ، لأنه في بلاد انتقال الأرواح Mètempsychose الأشياء لا تفنى ، وإنما تتغير وتُصيَّر ، فروح الهند القديمة لم تمت عندما أشرقت عليها الحضارة الغربية ، وإنما بعثت بعثاً جديداً .

فالهند الفتية وجدت في الروح التقليدي وفي الفكرة الفيدية ما صنعت به روح ثورة الساتياجراها وفكرتها ، وما كان لهذه الظاهرة ـ ظاهرة امتصاص فريدة ـ أن تتحقق لولا شخصية غاندي ، الذي لم يكن الرجل السياسي بالمعنى الدارج ، أي بالمعنى الذي يضع السياسة تحت تصرف الظروف دون قيد ولا شرط ، بل كان القسيس الذي يخضع العمل والسياسة لشروط القداسة .

ومن المعلوم أن ميدان السياسة ـ بالمعنى الذي تضفيه الحضارة الغربية على هذه الكلمة ـ هو ميدان النفاق والكذب والشعوذة و (الشطارة) والانتهازية .

فغانـدي دخل هـذا الميـدان من أجل تحرير بـلاده ، ولكنـه لم يـدخلـه إلا بسلاح الصدق والإخلاص والوضوح واللاعنف .

ولقد كان من نتيجة هذا السلوك وتحديد هذه الوسائل ، في ميدان السيـاسـة ـ أي في الميـدان الـذي وضعت عليـه ظروف القرن العشرين طـابع التصنـع والخداع ـ أن أعيد له ، في خطة الساتياجراها ، ذلك الانسجام الذي فَرَّطَتْ فيـه الحضارة العصرية وهو الانسجـام بين الظـاهر والبـاطن ، بين النيـة والعمل ، بين الخاطر والقول .

إن لكل ثورة فلسفة ثورية ؛ ففلسفة غاندي لم تكن مركزة على مفاهيم القوة والعنف ، بل على مفاهيم البقاء والشعور بالألم .

ولقد مرت الأيام على هذه الصفحة الماجدة وعلى التجربة الفريدة ، دون أن تكذب في هـذه تفصيلاً واحـداً ، أو في تلـك سطراً واحـداً . فجـاء عهـد التنفيـذ عندما تحررت البلاد فبقيت (سياسة) نهرو وفية لفكرة غاندي .

وفي هذا أكبر دليل وأوضح برهان على وحدة ثقافة !!..

فالساتياجراها لم تلعن العنف فقط ، بل طهرت ميدان السياسة من النفاق ، وطردت منه ذلك الازدواج (مثاليـة ـ واقعيـة) في بلـد لا يسمح فيـه للعمل أن يكذب النية ، ولا لمذهب أخلاقي يتعامل به الناس في الشارع أن يكذب مـذهبـاً أخلاقياً مقبوراً في الضمائر لا أثر له في الحياة .

فليس اللاعنف إلا مظهراً ـ المظهر السياسي ـ للروح الفيدي ، الـذي جعلت منه الهند العصرية أساساً لوحدة ثقـافتهـا ومضمون رسـالتهـا ، هـذه الرسـالـة التي تكون في العـالم الغـاص بروح العنف وبـالسلاح الـذري ، النقيض الـوحيـد لهـذه الأشياء .

ويمكن القول إن هذه المناقضة هي السبب القوي الذي دفع (رومان رولان) إلى رفع صوته وتوجيه ندائه إلى هذا الجيل ، برسالة السلام التي تتضمن ، في حيز القوة ، وفيما تحتويه فكرة الساتياجراها من بذور المصير ، تتضمن مصير الإنسانية إلى توحيدها وإلى وحدة ثقافتها .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن الضمير الهندي يتضمن اليوم أكثر من غيره ، في نطاق السياسة ، فكرة هذا المصير بل ربما هي في جوهره .

وعندما يقرأ غاندي شيئاً من القرآن ، بعد ما يكون قد قرأ شيئاً من كتاب (الأوبانيشاد) أو الإنجيل ، فليس لمجرد التسلية ، بل هي صورة تعبر عن ثقافته واستعداداته الروحية في عالم الواقع .

وإن مثل هذا السفر بين الكتب المقدسة المختلفة ، لا يتاح لكل سائح إن لم يكن في نفسه ما في نفس ذلك السائح (سوامي رامه) ، الذي أتاحت له نفسه ، بل دفعته إلى ذلك الطواف البعيد من بلاد سيلان إلى بلاد التيبت ، تلك الرحلة الروحية التي أعطانا عنها فكرة ، المسيو (مرسيل بريبون) في مقالة نشرتها صحيفة (لوموند) .

إن روح الهند التقليدي دب في العالم المتحضر ، وأتاه عن طرق متعددة ، من بينها الطريق التي تتمثل في إنتاج علماء الآثار السانسكريتية ، في ألمانية خاصة ، ولكن أكبر أثرها في العالم الحديث ، قد أتى عن طريق (رومان رولان) ، الذي أبرز هذا التيار الفكري ، من مجال التفقه العلمي الذي اختص به علماء السانسكريتيا إلى المجال العملي ، وأضافه إلى القوى التي تغير وجه العالم اليوم .

وليس من مجرد الصدفة ، أن بلاد الميكادو والساموراي ، أي البلاد التي تغلغل في نفسها الروح العسكري ، بدأت اليوم تكافح من أجل التخلص من سياسة الأحلاف ومن التسلح ، كما يبدو من خلال إحصائية أجراها أخيراً باليابان

صحفي غربي ، وأن يكون بين الآراء التي سجلها هذا الصحفي رأي لشاب ياباني يرى أن بلاده يمكنها الصمود في وجه أي اعتداء بوسائل اللاعنف .

أليس جديراً بنا أن نتساءل : من ألقى هذه البذور الجديدة في ضمير الجيل الياباني الحاضر ؟ أليس صاحب كتاب (جان كريستوف)[1] هو الذي ألقى تلك البذور في بلاد أوكاكورا ومدام كريزنتم ، بمؤلفاته عن غاندي والساتياجراها ؟

ولنذكر بالمناسبة شيئاً يبدو لنا في منتهى الغرابة : إن العدد الخاص لمجلة (كراسة الجنوب) عن رسالة الهند ، لم يذكر من بين من عرف هذه الرسالة ورفع صيتها في العالم ، اسم رومان رولان ... إن حظ الإنسان يكون أحياناً غريباً جداً .

ولكن نتمنى ، ونحن على أبواب الذكرى العاشرة لموت غاندي ، أن الشرق يتدارك ما فرط فيه الغرب بجانب رومان رولان ، ونتمنى أن الهند خاصة تأخذ على حسابها ، في السنة المقبلة تنظيم يوم يليق بذكرى ذلك الكاتب الكبير الذي أذاع صيت رسالتها في العالم .

☆ ☆ ☆

(١) الكتاب الذي نشر شهرة (رومان رولان) في العالم .

تحية إلى داعية اللاعنف

الشباب المسلم في ١٩٥٣/١/٣

في عالم يسوده القلق ، وهو يتأهب مرة أخرى إلى انطلاق الوحشية والعنف ، يبدو أنه ليس من العبث أن نذكر من حين إلى آخر سيرة غاندي .

لقد كنت في تلك الليلة أستمع إلى إذاعة مؤثرة ، اجتهد من نظَّمَها في جمع شهادات من بعض الشخصيات الحية التي تستطيع تذكر نبذة عن غاندي ، أو تدلي بذكرى احتفظت بها عن حياته ، حتى تستطيع بذلك أن تكشف لنا جانباً ما زلنا نجهله في محيط تلك (النفس الكبيرة)[1] .

وكان يتخلل الإذاعة صوت متخافت يرتفع من حين إلى آخر ببعض المقتطفات من الكتب المقدسة ، فهذه مقتطفة من (الأوبانيشاد) أو تلك من (البهاجفاتجيتا) ، وكان هذا الصوت يثقب من حين إلى آخر كلام المذيع المتأثر ، بنبرة خاصة كي يحيطه بهالة من القداسة .

ولكن اللحظة المؤثرة كانت دون أي شك عندما ارتفع مرتين صوت غاندي نفسه ، مسجلاً على شريط هو من أثمن مخلفات الفقيد الكبير .

نعم ... إننا لا نفهم هذه الكلمات المكشكشة التي تنفلت من رئة استنفدت قوتها ، ومن فم فقد أسنانه ... ولكن هذا الصوت المتخافت الغريب ، صوت من وراء القبر ، يستولي على شعورنا ، ويأخذ إحساسنا . إنه قوة غير مرئية ، قوة

(١) اللقب الذي يلقب به غاندي أصدقاؤه : المهاتما .

لا يدركها التحديد ، ولكننا نشعر بطاقتها الجبارة .. فهي تأخذ قلوبنا وتتركنا فاقدي الأنفاس لحظة ، بعدما يسكت ذلك الصوت المتخافت ...

ثم يستعيد العقل نفسه ..

إن هذا الهمس الذي مرّ على الأمواج ، يمثل بالضبط نقيض زوبعة الكلام التي تنتظر زوبعة من التصفيق ، إنها نبرة اللاعنف ذاتها ، النبرة الوحيدة التي تستطيع التعبير عن اللاعنف بالصوت ذاته ، هذا الصوت الضعيف الذي أبدى قوته القهارة على أربع مئة مليون من البشر سلحها بالصبر والبشاشة .

لقد رجعت الدبابات إلى الوراء وتقهقرت عند تلك الأجسام التي انفرشت على الأرض أمامها ، تقهقرت أمام أفواه ترتل بعض الأذكار المقدسة وأمام أرواح منغمسة في صلوات صامتة .

إن جهاز الاستعمار الضخم وقف عند حده وباء بالخسران أمام معزة غاندي ، وسرباله (الساري) ومغزله ، وصلواته وصيامه مع الجماهير وفي خلواته .

إن كل هذا المظهر الجذاب الأسطوري لكفاح غاندي والانتصار الذي توجه بالتالي ، أصبح مما تعارف عليه الناس في المستقبل على أنه فصل جميل من تاريخ الإنسانية التقليدي ، ولكن هذا المظهر الذي ينعكس فيه خاصة الضمير الهندوكي ، لا يفسر لنا وحده معنى اللاعنف ، فهناك مظهر آخر نريد لفت النظر إليه هنا لأنه يكمل فيما نعتقد ، النبذة التي أردنا تقديمها في هذه السطور ، مع مطابقة ، من ناحية أخرى مع معنى من معاني القرآن الكريم .

إن اللاعنف ما كان (مقاومة) فقط وما كان يعبر فحسب عن نافية شكلية ، عن كلمة (لا) التي أفضى بها الضمير الهندوكي في المعرفة ، أي عن موقف

سلبي في هذه المعركة ، فاللاعنف كان أيضاً موقفاً إيجابياً في نواحٍ أخرى ، موقف الضمير الإنجليزي ذاته وهو يرد ضمناً بكلمة (نعم) عندما يأخذه تيار المعركة ويفرض عليه الرد .

إنه كان في إمكان الجندي الإنجليزي أن يدوس بدباباته تلك الحشود من البشر ، التي رقدت على عرض الطريق بشوارع كلكوتا وبومباي أيام المقاومة السلبية ، ولكنه لو فعل لداس الثقة النبيلة التي يكنها ضمير تلك الحشود البشرية ، التي ألقت ـ حين ألقت بنفسها على عرض الطريق ـ ألقت على ضمير الجندي الإنجليزي عبئاً ثقيلاً ، عبء حياتها وطموحها وصلاتها ، وهكذا تقهقر الجندي الإنجليزي من أجل ألا يدوس ضميَره وعظمةَ وطنه وشرف ثقافته .

وكان موقفه هذا كأنه الرد بكلمة (نعم) على الثقة المتناهية التي عبرت بها تلك الحشود ، وكأنها واجهت العنف بكلمة (لا) .

وهذا الرد الفذ بـ (نعم) يكمل معنى اللاعنف ، يكمله كأنه حوار وفلسفة يرتكز مرتين على الثقة في الضمير الإنساني .

وليس مما يخالف طبيعة المسلم أن يرى في هذه الفلسفة ، انطباعها على التوجيهات التي يعرفها في دينه ، لأن القرآن يحث على أن يكون الكلام مع الخصم ، موجهاً إلى ضميره حتى يصبح كأنه (وليٌّ حميم) .

وليس في هذه الموازنة ما يفاجئنا ، إذ كانت اللحظات الأخيرة التي قضاها غاندي في هذه الدنيا ممتلئة بتلاوة القرآن والإنجيل والعهد القديم والبهاجفاتجيتا ، يتلو غاندي هذه الكتب الواحد بعد الآخر ، وكان يقرأ الترجمة الأوردية للقرآن قبيل موته .

ولكن هذه اللحظات التي كانت في صورة ما ، تحكي لحظات الحديث على

الجبل في حياة المسيح ، كانت في الوقت نفسه تنذر بخسارة لا تعوض ، ستخسرها الإنسانية في شخصه ، لأن هذا الرجل كان يتقمص إلى درجة بليغة ـ الضمير الإنساني في القرن العشرين ، كان يستطيع إنقاذ وحدة الإنسانية الأدبية في أخطر لحظة من تاريخها .

وهكذا قدر لغاندي ، داعية اللاعنف ، أن يموت على يد العنف[١] .

إنها لسخرية نادرة ، ولكنها تشبه إلى حد كبير ، حكمة نادرة ، تكررها الطبيعة في كل فصل من فصول الربيع : فالبذرة التي يقدر لها أن تنبت ، يجب أولاً أن تدفن في التراب .

إن الشعوب القديمة بنت أحياناً عقيدتها على هذه الحكمة ، وكانت تستعير منها ربوبية أوثانها وأساطيرها ، نجد ذلك مثلاً عند قدماء المصريين : فالرب أيزيريس ـ الرب الخلاق ـ يقتله ست (وربما يرادف هذا الاسم ما يسمى الشيطان في الكتب المنزلة) ، يقتله ست الرب القائم بوظيفة التحطيم ، ولكن إيزيس ربة الحب ، تجمع أعضاء القتيل التي بعثرها خصمه الفتاك ، تجمعها ويبعث إيزيريس حياً منتصراً .

هكذا رفات غاندي التي ذروها ـ طبقاً للتقاليد ـ في مياه الغانج المقدسة ، ستجمعها الأيام في أعماق ضمير الإنسانية كيما ينطلق يوماً انتصار اللاعنف ، ونشيد السلم العالمي .

☆ ☆ ☆

(١) قد قتله هندوكي بين التحقيق علاقته بجمعية إرهابية اسمها (محاسبه) .

رومان رولان ورسالة الهند

الشباب المسلم في ٢٦ / ٦ / ١٩٥٣

إن القرن العشرين يحفظ ، في أعماق ضميره ، الأفكار التي زرعها في التاريخ ويحفظ معها أسماء الزراع الكبار الذين زرعوها .

كأنما ثمة معبد تحفظ فيه الأفكار الخالدة ، ويدخل فيه أيضاً إلى الخلد أصحاب تلك الأفكار ، كما فعل أهل الكهف أولئك الفتية المؤمنون ، حين أووا إلى كهف الخلد بعد أن كانوا شهود هذا الزمن ، والرسل الذين بلغوه رسالة الهند .

فعندما تنزل هاتان الكلمتان من القلم على القرطاس ، يأتي وراءهما حشد من الأسماء الجليلة ، نذكر طبعاً من بينها غاندي ، طاغور ، وإذا ماأوغلنا فسنذكر فيفيكانندا ، وربما ذكرنا معه أستاذه راما كريشنا .

لكن حافظ المعبد ربما أضاف إلى هذه الأسماء اللامعة اسم شري نهرو ، ذلك الرجل الذي يسير في طريقهم اليوم ، ويحتذي حذوهم ، ذلك التلميذ الذي لا يزال على قيد الحياة وفياً للأستاذ ، غاندي ، حتى في موكب التتويج يوم تتويج الملكة اليزابيت ، حيث نراه يسير في هذا الموكب العظيم ، دون أن تصحبه أية أبهة عسكرية ، كتلك الأبهة التي رافقت من سار معه من ممثلي دول الكومونولث ، فكان بذلك يعلن فكرة اللاعنف بصورة رمزية ، في حدث هام من أحداث الحياة الدولية .

ولقد تراودنا الفكرة ، إذا ما كنا مسلمين ، أن نتساءل : هل من بين هؤلاء الزراع لفكرة اللاعنف ، وهؤلاء الشهود الكبار الذين أووا إلى الكهف في القرن العشرين ، هل من بينهم مسلمون ؟

ويؤسفنا ألا نجد من بينهم حتى إقبال ، ذلك المفكر الذي لا ينسى عندما ينكب على مشكلات العالم الإسلامي ، لا ينعى ولا يتناسى (التصميم العام الذي يشمل الكتلة البشرية كلها) .

لكننا لانرى واحداً من الكتاب في الغرب أو في الشرق يذكر اسم إقبال من بين تلك الأسماء ، ونحن سنغض الطرف بوصفنا مسلمين عن هذا النسيان الغريب ، إذ ربما يعود سببه الأول إلى حدة المزاج عند الحافظ الأول لأسماء أهل الكهف في القرن العشرين . وأول سدنة المعبد الذي تحفظ فيه أسماؤهم الخالدة ، ونعني رومان رولان .

إننا نتساءل إن لم يكن هذا المؤمن الذي فر بإيمانه من قيود الكنيسة ، وهذا الأستاذ الذي زهد في كرسي أستاذيته ، وهذا المواطن الفار من حدود القومية الضيقة ، ومن حدود الطبقة ، ومن كل إطار رسمي ليكون مجرد إنسان (فوق الخصومة)[1] ـ أي في الواقع ليكون في صميم المعركة من أجل الحق والعدالة والجمال ـ أو بكلمة موجزة : إننا نتساءل إن لم يكن هذا الرجل ، الذي تخلص من كل العقد التي يرثها الناس في الغرب من ثقافة القيصرية ، لم يتخلص بعد من بعض العقد الموروثة في بلاده ضد الإسلام ؟

ولكننا بوصفنا مسلمين سنغض الطرف عن هذا السؤال أيضاً ، لنقول كلمة واحدة : فربما كان الرجل يحمل عن الإسلام وعن الفكرة الإسلامية صورة مشوهة ، كتلك الصورة التي تنقل في بلاد الغرب عن الإسلام والمسلمين تشويهاً لسمعتهم .

لكن ينبغي الحذر حتى لا نعطي للخصوم مسوغات التشويه ، فالهند التي

(١) عنوان كتاب لرومان رولان نشره في أيام الحرب العالمية الأولى وقد أثار به ضجة كبرى في أوربا وفي فرنسا خاصة .

يقودها نهرو لا زالت وفية لمبدأ اللاعنف ، أما القطاع من البلاد الذي تولى أمره جناح ، فإنه أصبح دولة ألقت بالملايين من المسلمين في سياسة الأحلاف العسكرية كحلف بغداد ، وهذا يجعلنا نتساءل ماإذا كان المرحوم أبو الكلام آزاد قد اختار البقاء بنيودلهي ليبقى وفياً لطريقة الساتياجراها التي حررت البلاد ؟

ومهما يكن الأمر فرومان رولان لم يشرك أحداً من المسلمين في أمر الساتياجراها وفي رسالة الهند على وجه العموم ، وليس من المتيسر أن نضيف أحداً إلى قائمة أبطال الفكرة في العالم ، دون أن نخل شيئاً ما بقداسة التقليد ، الذي نشأ من إشعاع الفكرة ، لا نستطيع إضافة أي اسم لهذه القائمة الخالدة حتى ولو اسم تولستوي ، مع أنه كان في طليعة هذه الدعوة دعوة السلام ، بل كان أول داعية وأول مبشر بها ، حتى يمكن اعتباره ، بالنسبة إلى غاندي ، وإلى الساتياجراها بمثابة يحي المعمدان بالنسبة إلى دعوة المسيح .

ولكن فلنحدد أولاً دخول هذه الفكرة في تاريخ العالم . وهنا يمكن ، بل يجب ، أن نعد خطواتها الأولى في التاريخ ، تلك الرحلة التي قام بها في أوائل هذا القرن قبل غاندي ومدرسته فيفيكانندا حول العالم ، وزيارته إلى أميركا الشمالية خاصة ، إذ ذهب هذا الشاب ـ والفيلسوف المتصوف ـ لينشر دعوته ، الدعوة إلى (قداسة الإنسان) هذا المذهب الذي سيخصص طاغور ، فيما بعد ، حياته للدفاع عنه والتبشير به ، وكانت هذه الرحلة أول بلاغ لرسالة الهند في العالم .

ولكن هذه الصرخة غير المنتظرة وغير المألوفة ، لم تثر إلا اهتمام بعض الأوساط المهتمة بما يسمى علم الأرواح و (الإلهيات) ، حتى إن صرخة فيفيكانندا : (إلهي !! إليك الفقراء من كل وطن ومن كل جنس !) ... هذه الصرخة الرائعة التي تعبر في أعماق ضمير ممتاز عن مذهب يدين بخدمة الإنسان ، يدين بفكرة من يقول : « إذا أردت أن تجد الله فاخدم الإنسان » ، هذه الصرخة مرت مع خطوات الزائر دون أن تترك صدى كبيراً في الضمير الأمريكي ، ولم

يسجل لها أثر في التاريخ ، سوى أثر تلك الفتاة الأمريكية التي اعتنقت المذهب ، وسارت وراء خطوات صاحبه ، كما ستسير فيما بعد ، تلك الفتاة الانجليزية (مسز سلاد) وراء خطوات غاندي ، لتمثل في قصة الساتياجراها دور المجدلنية في هذا العصر .

أما في أوربا ، فلم يكن لهذه الصرخة أي صدى ، وما كان لها أن تترك أثراً في تلك البلاد المنهمكة في نعيم (العصر الجميل)[1] ، حين كانت الجماهير الأوربية ترقص فيه رقص ڤيينــة ، على نغمات شتراوس الساحرة ، تحت سيول الأضواء الكهربائية التي بدأت تنير ، إذ ذاك الحياة المتمدنة . ولم يكن المعاصرون للملكة فيكتوريا أولئك الذين طبعوا ذلك العصر بما في نفسيتهم ومزاجهم ، لم يكونوا يزورون الهند من أجل أن يسمعوا صرخة الإنسان الهندي ، بل ليتمتعوا بصوت النمر الرهيب في غابات البنغال الكثيفة .

ولكن هناك ، في البنغال بالضبط ، حيث قمعت بالدماء بعض أحداث ثورية ، بدأ يصعد حوالي سنة ١٩٠٥ صوت طاغور ، الذي وجه نداء الهند لأول مرة إلى أوربة ، ولقد كان في أوربة ضمير يقف بالمرصاد ، وأذن رقيقة الحساسية تتحسس كل هبوب يدفعه الروح ، وكل نداء يأتي من الإنسان ، وكل أنين يصعد من الآلام ، وهكذا سمع رومان رولان بكل حساسيته النادرة صوت طاغور ، (صوت ذلك العصفور) كما سيسجل في مذكراته عندما يسجل اسم الشاعر الكبير لأول مرة .

ومن تلك اللحظة ، يبدأ تاريخ الساتياجراها ، أو رسالة الهند في العالم . لأن رومان رولان بدأ من تلك اللحظة تبليغها ونشرها ليس في أوربة فحسب ـ موطن دمه ـ ولكن في العالم موطن روحه .

---

(١) يطلق هذا الاسم في أوربة على العهد الذي ملكت فيه الملكة فيكتوريا تقريباً إلى إبان الحرب العالمية الأولى .

ولم يقم بهذه الدعوة دون أن يشعر بجلالها وقداستها ، كما نرى ذلك من خلال مذكراته عندما يذكر بعض رفاق الطريق ، وعلى وجه الخصوص ، عندما يذكر رفيقين قضيا نحبهما في ذلك الطريق ، في خدمة الدعوة ، لقد رافقا غاندي في الأيام الأولى عندما كانت الدعوة في بدايتها بإفريقيا الجنوبية ، وهكذا يتساءل رومان رولان في شأنهما ، فيكتب في مذكراته : « من سيتحدث عن القديس أندريوس وعن القديس بيرسون ؟ » .

من سيتحدث عنهما ؟ .

وهل شهادة تشيد باسميهما وتخلدهما في التاريخ أكثر من هذه الشهادة التي أراد رومان رولان أن يضفي عليها طابع القداسة فأعطى فيها للرفيقين كليهما لقب القديس ؟

ولكننا بدورنا نتساءل : من سيتحدث عن القديس رومان رولان !؟ والواقع أن عملية تعمية بدأت تحيط باسمه منذ اليوم ، لأننا نجد تعريفه في القاموس بهذا النص : « رجل متمسك بمبدأ السلام والاشتراكية العالمية ، صاحب كتاب (جان كريستوف) » .

إن هذا التعريف يكفي لا شك لتخليد اسم في الأدب ، ولكن رومان رولان يستحق أكثر من ذلك !

إننا لو عددنا في تاريخ القرن العشرين (أفكار غاندي) تياراً رئيسياً في هذا القرن ، لوجدنا نفوسنا في اللحظة ذاتها مضطرين إلى اعتبار رومان رولان لا مجرد مبلغ لأفكار الآخرين ، ولكن بوصفه أستاذاً بالنسبة لهذا التيار ، لأنه لم يقم فقط بدور من عرف أفكار غاندي في العالم المتحضر ، بل إنه أحياناً وسع نطاق تلك الأفكار وعمقها .

لقد عمقها في كل مرة شعر فيها بضرورة إضافة عنصر من عناصر تفكير

فيفيكانندا إليها . أي من تفكير ذلك الفيلسوف الإنساني الذي يشعر بضعف الإنسان ، أكثر من غاندي الذي ربما وجدنا عنده بعض المعاني الإنسانية المتحجرة . بسبب الشدة التي يقتضيها أحياناً العمل في الحقل السياسي ، عندما يكون العمل السياسي مطبوعاً بشدة التمسك بالمبدأ ، كما كان الأمر بالنسبة إلى غاندي .. إذ كان يفقد أحياناً الشعور بحدود طاقة الإنسان .

فرومان رولان وسع نطاق هذه الأفكار ، في كل مرة شعر أن صلاحيتها تمتد إلى أبعد من مصلحة الهند وحدها ، وهكذا نراه يعمد إلى تخليص تلك الأفكار من الإطار الهندي الذي خصصها غاندي له لتصبح صالحة لخدمة الإنسانية كلها .

إن رومان رولان استطاع أن ينقل الأفكار التي وضعها غاندي في فلك الهند ، إلى الفلك العالمي الذي كان يشعر به أكثر من غاندي ... إذ كان ابن ذلك الفلك الأوربي الذي أصبح ـ بمقتضى انتشار الحضارة والثقافة الغربية ـ الفلك العالمي .

(ضاع ما يتبع من هذا المقال) .

الأساس الغيبي لفلسفة الإنسان في الإسلام

الجمهورية الجزائرية في ٢٩ / ٩ / ١٩٥٠

إن المقالة التي نشرها الدكتور عبد العزيز خالدي[1] بعنوان (الاستعمار والحرية) - وربما كانت تستحق عنواناً آخر لأنها تتعرض لمشكلة في منتهى الأهمية بالنسبة إلى كفاحنا اليومي - قد وضحت عقدة جوهرية في النفسية الأوربية تجاه الإنسان ، العقدة التي تمنع الفكر الأوربي من فهم الإنسان بمعناه التام ، أو كما يقول صاحب المقالة ، في عبارة موفقة ، فهم (الإنسان بأكمله) .

وهذه الحقيقة واضحة في النفسية الأوربية كما سنحاول توضيحها في هذه السطور . ولكن الدكتور خالدي يعزو هذه العقدة إلى ظاهرة رأسمالية ، وبالضبط إلى الثقافة الرأسمالية التي ، حسبما يرى هو ، قد أذابت مفهوم (الإنسان الأبيض المتحضر) و (والإنسان الملون المتهمج دون رجعة ، والمتخلف بصورة مزمنة) .

فهذا التفسير للقضية ، أي تفسيرها على أنها من معطيات المجتمع الرأسمالي ، يكون مقبولاً لو أنه تمشى مع الوضع الأوربي منذ عهد معين ، أي منذ ظهور الرأسمالية في أوربة وتكوين الإمبراطورية الاستعمارية ؛ ولا شك أن الواقع الاستعماري ، الذي نعرف آثاره الغربية في أوربة ، فيعمي الأبصار حتى ينظر الناس إلى الرجل الأشقر من جبال الأوراس بالجزائر على أنه (الزنجي) ، بينما يرون الرجل الأسمر الذي يعيش مثلاً بجبال قسطيليا في إسبانية على أنه (الأبيض) ، لاشك أن الفكر الاستعماري ، الذي يمارس تحريف الواقع بهذه

(١) الدكتور عبد العزيز خالدي هو صاحب كتاب (القضية الجزائرية أمام الضمير العالمي) سنة ١٩٤٦

الصورة المكشوفة حتى في مجلة للأطفال ، لاشك أن هذه الأشياء تجعلنا نركن إلى رأي الدكتور خالدي في القضية .

ولكن القضية على جانب من الأهمية تستحق أن توضع في التاريخ في حدودها الحقيقية .

إن الرأسمالية تفسر ، لاشك ، أشياء كثيرة في النفسية الأوربية ولكنها لاتفسر كل شيء .

لقد أشرت في مرة سابقة ، في فصل من فصول كتاب (شروط النهضة) ، إلى أن الاستعمار نكسة في تاريخ الإنسانية تعود بالتاريخ إلى العهد الروماني .

ويجب أن نلاحظ أن هذه النكسة لم تقع في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ، عندما بدأ يتكون الوضع الرأسمالي والاستعماري في أوربة ، بل وقعت في غرة القرن السادس عشر ، مع تلك الحركة المعقدة التي يسميها التاريخ حركة النهضة ، والتي عبرت عن نفسها بأنها (رجوع إلى العهد الروماني والإغريقي) .

إن دراسة ظهرت هذه الأيام في علم الإنسان بقلم المسيو ريمond شواب ، تحت عنوان (النهضة الشرقية) ، تبين كيف وقع أفول للإنسانيات في الغرب بهذا (الرجوع إلى العهد الروماني) .

إنني أطالع ، بكل أسف هذه الدراسة ، ولكنني شعرت بقيمتها من خلال ماقاله فيها النقد ، الذي يقدمها لنا على أنها (دراسة كبيرة توسع نطاق الإنسانيات) ، ويقدم صاحبها لنا على أنه يرى (في التقاليد الرومانية ، لا في القيم المسيحية) السبب الكبير ، إن لم نقل الوحيد ، لانفصال الفكر الغربي عن الإنسانية الشرقية .

إن هذه الكيفية في فهم القضية سليمة ، فيما يبدو لي ، ولكنها تقتصر على

اعتبارها بالنسبة إلى محور (الشرق ـ الغرب) فقط ، مع أن الحقيقة تشمل موقف الأوربي إزاء الإنسانية بصفة عامة ، إذ أنه في حالة انفصال عنها ، منعزل عنها ، ملتفت عنها كأنه ليس منها ، بل يتربص بها الدوائر ، كي يجعل منها (حاجة) يملكها ، و (شيئاً) يغتصبه ، عندما تدق ساعة الفتوحات الاستعمارية .

وتصاغ للتعبير عن هذا الانفصال الكلي الكلمات المناسبة : فكل ماليس بأوربي فهو (الأهلي المتوحش) ، ولا يخرج عن هذه القاعدة أحد في أوربة ، حتى ماركس الذي ثارت ثائرته يوماً ، في وثيقة خرجت من يدي ومن ذاكرتي ، عندما رد بكل عنف على مؤرخ معاصر له ، لأن هذا المؤرخ قد وضع على صعيد واحد ، في نظره ، (آسيا) في ذلك العهد وإلى حد مااليوم أيضاً ، في درجة ما من التأخر بالنسبة إلى أوربة ، ولكن ماركس كان يدلي بحكمه في القضية بصورة قطعية مطلقة ، كأنما آسيا في نظره ، خلقت لتكون على طول الزمن (آسيا المتوحشة) ...

ولكن مثل هذه الأحكام لا تخضع للمنطق حتى عند ماركس ، لأنه لا يحكم هنا بما يمليه العقل ، ولكن بما يمليه الوسط والثقافة .

الواقع ـ كما يلاحظ المسيو شواب ـ هو أن صورة (الشرق) في الذهن الغربي تتجلى من خلال عاطفة متعالية ومطلقة ، تعبر عن شعور الغرب نحو نفسه ونحو الآخرين .

غير أن القضية تستحق مزيداً من الوضوح : فإن هذا التعالي المطلق ليس ـ فيما يخص الحقل الفكري على الأقل ـ واقعاً خاصاً بطبقة معينة ، إذ أن الفرد الأوربي يحمل جراثيم هذه الكبرياء دائماً لأنه يتلقاها من الجو الأمومي الذي يتكون فيه منذ الطفولة ، ويتكون فيه تصوره للعالم وللإنسانية ؛ فهو يعتقد على وجه الخصوص ، أن التاريخ والحضارة يبتدئان من أثينا ، ويمران على

روما ، ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف سنة ، ثم يظهران من جديد بباريس في حركة النهضة ، أما قبل أثينا فليس شيء يذكر في ذهن هذا الفرد المشحون بالكبرياء الذي لا يرى بين أرسطو وديكارت إلا الفراغ .

وإننا ـ عندما نلاحظ هذه الملاحظات ـ لا نشير إلى أسرة الفراشين المحترمين في الجامعات الغربية ، بل نعني أساتذة هذه الجامعات أنفسهم .

إن هذه النظرة الخاصة للغربيين هي التي تشوه منذ اللحظة الأولى فلسفة الإنسان عندهم ، وتشوه بالتالي السياسة الغربية في العالم ، وربما يجب بعض الاستثناء بخصوص ما يسميه الدكتور خالدي : المعجزة الإنجليزية ، عندما يشير إلى الاتجاه الجديد الذي اتخذته إنجلترا إزاء المستعمرات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ولكن أليس مما يستحق الملاحظة أن إنجلترا كانت ، في الوقت ذاته الذي تعلن فيه استقلال بعض مستعمراتها مثل الهند ، تفسح المجال إلى جيوش الاستعمار الهولندي التي تنزل بميناء سانغافورة كي تحتل إندونيسيا من جديد .

ولكن فلنعف عن (المعجزة) لأنها ماقبلت ولا تقبل التحليل ولنتركها قابعة في سرها ، وحسبنا أن نسجل هذا الاتجاه الجديد في سياسة إنجلترا ، باعتباره قد اتخذ فعلاً في التاريخ مبادرة تحرير مستعمراتها دون أن تشعر في ظاهر الأمر بضغط من الخارج .

ولكن هل هذا التطور الرسمي الذي ظهر أثره في أعمال الحكومة الإنجليزية ، قد تجاوب مع تطور حقيقي في نفسية الفرد الإنجليزي تجاه الإنسان ؟ القضية في هذا المجال فيها نظر ...

والواقع أن فلسفة الإنسان لا زالت في الغرب رهينة تعابير ومصطلحات ، لا تسمح للذهن الغربي أن يتصور وحدة الإنسان ، وتضامن ملحمته على وجه الأرض .. ، فهناك كلمات مثل (الأهلي) و (الولد) و (المولود) و (الأسود)

و (الجلد الأحمر) تعبر ، في الغرب ، عن عينات إنسانية سفلى ؛ وهناك عبارات تضفي على بعض الأجناس صفات أو ألقاباً معينة إلى الأبد ، مثل (الهندي الخفي) و (العربي غير المكترث) و (الصيني الغامض) إلخ ....

ففي اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور يقع تحت نظري عدد من مجلة (إيكو) أرى على وجهها صورة رجل صيني ، أراد محرر المجلة أن يعلق تحتها هذا السؤال « ماذا يختفي وراء هذا الوجه الغامض » ؟

وإنني أحدق في الصورة كي أرى ما يسوّغ هذا السؤال ، فلا أجد أي غموض ، في ملامح هذا الوجه المريح المتفتح المستبشر : فلاشك أنني رأيت وجوهاً أكثر غموضاً منه بشوارع الجزائر أو باريس ، مع أنني لم آلف بعد الوجوه الصينية . ومن المحتمل جداً أنني لم أر منها في حياتي العدد الذي رآه صاحب المجلة .

هكذا نجد أنفسنا ، فجأة ، في نقطة تقاطع ، تتقاطع فيها نظريتان عن الإنسان . ولقد أشعر بأن هذه الملاحظة كأنها تلتقط صورة غير مؤهبة ، لنظرية أخرى عن الإنسان ، صورة حية برزت من ضميري مباشرة بوصفي مسلماً ، في حالة شعور عابرة أو عن لاشعور ، ليعبر عن شيء يمكن أن نطلق عليه (فلسفة الإنسان في الإسلام) .

وإنني أقدر موقع التعجب الذي تقعه هذه العبارة في ذهن من يقدر الكلمات بحرفها أكثر من معناها ، إن معرفتي القليلة بأصول اللغة العربية لاتتيح لي الحكم الجازم بوجود كلمة عربية تعبر عن كلمة **Humanism** (التي نترجمها هنا بعبارة فلسفة الإنسان) ، ولكن روح هذا المفهوم ليس مرتبطاً بلفظه ، كما أن واقعه ليس خاصاً بإدراك عقل عالم ، بل هو في متناول أي ضمير بمجرد اتصاله الطبيعي بالإنسان .

فهذا الاتصال هو الذي يحمل معنى الكلمة ويعبر عن واقعها .

فإذا تحدثنا عن (فلسفة الإنسان في الإسلام) فإننا نعبر عن نوع اتصال بالإنسان خاص ، وضع فيه الإسلام أساساً غيبياً ، حتى إن الضمير الإسلامي لا يمكنه أن يفصل مفهوم (الإنسان) عن هذا الأساس الغيبي ، دون أن ينفصل هو عن الإسلام الذي قرن هذا المفهوم بتكريم الله : ﴿ ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء ١٧/٧٠]

وهذا التكريم ليس خاصاً بالعربي أو المسلم بل بنوع (ذي اليدين) ، كله من ذرية آدم ، ذي اليدين الذي يتمتع في نظر الضمير المسلم بقيمة تفوق كل قيمة طبيعية تحتمل (الكم) .

إن (الإنسان) ليس في نظر المسلم ، (الكم) الذي تجري عليه الإحصائية والوزن ، أي الشيء الذي تجري عليه تجارب المختبر ، وعمليات المصنع ، وحاجات الجيش .

فالإنسان ليس (الكم) بل (الصفة) التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم ، فالمسلم يكرم هذه الصفة بصورة مطلقة .

وكما هو منتظر فإن هذا التكريم له آثاره المحسوسة في الحياة : في التشريع وفي الآداب وفي العادات ...

فالإسلام يقرر لأقل عبد رقيق الحق في العتق إذا ما تبين أن ربه ظلمه في العمل أو في الغذاء .

ونرى الخليفة عمر يخضع للواقع عندما ترفض عجوز يهودية أن تسلم حقها في مِلْك يقع في حرم المسجد الذي بني بالمقدس .

وفي رحلات العرب ، إبان العصر الذهبي ، مثل رحلات ابن بطوطة والمسعودي وأبي الفداء ، فإننا لا نجد فيما يكتبون عن الشعوب والقبائل البدائية

المكتشفة أي ثرثرة تشوه إنسانية هذه الشعوب ، ولا نرى في اتصالهم بها أي آثار للكبرياء في علاقات الإنسان المتحضر العربي إزاء الإنسان البدائي ، ولا نجد فيما كتبه الرحالة العرب المصطلحات الدارجة التي تعبر عن الإنسان بالتشويه ، والسخرية والاحتقار مثل العبارات التي أوجدتها لغة الاستعمار للتعبير عن الإنسان المستعمَر .

فشرف الإنسان محرم في الإسلام حتى في الصورة التي عليها ملامحه في قطعة من الورق ، فالمسلم يستحي بطبيعته من أن يستعمل هذه القطعة للاستبراء مثلاً ، بينما تجد صورة شيخ ذي وقار أو صورة فتاة ذات جمال فتان ملطخة في أماكن الراحة في البلاد المتحضرة ، بل أكثر من ذلك ، إنك لا تجد في هذه الأماكن في البلاد الإسلامية مجرد الورق المكتوب ، لأن الكتابة في نظر المسلم البسيط صورة لفكر الإنسان ، فهي على ذلك مقدسة .

فهذه الأشياء الطفيفة تحمل أثراً أعمق لفلسفة الإنسان من تلك الكلمات المنمقة ، التي تعبر بها عن تلك الفلسفة ، البلاد التي أعدت مصطلح هذا المفهوم بحرفه ، وزهدت في معناه ، كما هو أعمق من هذا المفهوم نفسه ، في ضمير أولئك الكتاب الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلى الإنسان ، دون أن يحاولوا هتك حرمته والمس بعرضه ، مثل زملائهم ، أولئك الفنانين والمخرجين السينمائيين ، الذين لا يلقون نظرتهم على الحياة الإنسانية ، دون أن ينزعوا عنها برقع حيائها ، فتراهم يركزون عدسات آلات تصويرهم ، على أكوام المزابل والنقائص والأسمال والجروح التي تنز ، بدعوى أنهم يخرجون أشرطة للاستعلامات ! أو أنهم واقعيون .

فكم نشعر باحتقار هؤلاء الأدباء والفنانين للإنسان لأنهم يقدرونه بتقدير (الكم) . هذا (الكم) الذي أراد أن يعبر عنه بلغته مخرج أمريكي مقتدر ، في فيلم أخرجه أخيراً يقول أحد أبطاله في حوار مؤثر : إنما الإنسان نقطة حقيرة على

وجه الأرض . فكل تقدير (كمي) هو في الواقع تقدير لشيء لاقيمة لـه ، أي لمجرد نقطة ، وماالنجمة الضخمة من حيث (الكم) إلا نقطـة تراهـا أعيننـا في السماء ، هذا إن كانت مرئية ، وأحياناً تكون (لاشيئاً) إن لم تكن مرئية !.

أما الإسلام فقد أعطى للإنسان كل حجمه في ضمير المسلم ، لأنه وضع قيمته في هذا الضمير ، لاعلى تقدير الكم على أساس غيبي يجعلها قيمة لامتناهية .

ولا نقول إنه ليس هناك من يقـدر الإنسـان هـذا التقـدير من غير المسلمين ، فلاشك أن الدكتور خالـدي قـد أصـاب فيما لاحـظ من تقـدير إنسـاني في لهجـة نهرو ، الذي يبدو أنـه يعطي هو الآخر للإنسـان كل حجمـه وكل التقـدير . إنني لاأدري إذا كانت لغـة أوردو ، التي يتكلم بهـا رئيس حكـومـة الهنـد قـد صـاغت المصطلح الذي يعبر عن فلسفة الإنسان . ولكن لاأشك في أن ضميراً صاغته تعـاليم غاندي لابد أنه يحتوي هذا المفهوم .

ومهما يكن الأمر ، فإن هـذا المفهوم يستحق ، بكل تـأكيـد ، أقصى مـا يمكن من الوضوح ، في عصر بدأت فيه الإنسانية تقرر مصيرها في مستوى الكرة الأرضية .

ولا شك أن المجهودات المبـذولـة اليوم في الغرب ، مثل مـا نشـاهـد في كتـاب المسيو (ريمونـد شواب) ، أو في إنتـاج مـدرسـة (رونيـه جينـون) تفتـح عهـداً جديداً .

وحبذا لو كان وراء هذه المجهودات الفردية تأييد المؤسسـات الكبيرة ، وإننـا نجد فعلاً في الأونيسكو ما يبشر بهـذا . ولكن نتمنى لو كان ، مع مـا نرى لموظفيهـا المحترمين من نشاط وراء جـدرانهـا الشـامخـة ، مـا هو أكثر تفتحـاً فيهـا على قضيـة الإنسان ومشاكل الحياة الواقعية .

☆ ☆ ☆

الدراسات العصرية والتصوف الإسلامي

الشباب المسلم في ٨ / ٥ / ١٩٥٣

إن المفكر الإنجليزي (ألدوس هكسلي) ، يبدو الكاتب الوحيد الذي تناول كتابه (الفلسفة الخالدة) ، دراسة التصوف بوصفه موضوعاً علمياً أو بالضبط طريقة بحث ، ومنهجاً يتبعه الاجتهاد العقلي لاكتشاف مجهول من نوع خاص ، أي على أن التصوف (علم) يبحث عن هذا المجهول ، لأن كل علم هو في جوهره الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل اكتشاف ما يجهل ...

وإننا لنعلم أن المتصوف هو ، فعلاً ، باحث عن الحقيقة الخفية ، بل هو أحياناً أكثر الباحثين حرارة وروعة في بحثه عن الحقيقة ، يبحث عنها في خفايا نفسه الحمية ، وأبعد من هذا المجال النسبي ، في سر ذلك الأفق النائي ، الذي تسبح فيه الحقائق المطلقة .

كما نعلم أيضاً أن هذه التجربة الذاتية ، قد تؤدي أحياناً إلى كارثة عندما ينتهي الطواف إلى فكرة (وحدة الوجود) ، وهي الكارثة التي تنتظر المتصوف عندما تضيع معالم الطرق أمامه ، في حالة من أحواله ، فيفقد فيها الاتزان النفسي ، فيصبح لا يفرق بين الحقيقة النسبية التي تكنها نفسه في عالم الـ (أنا) المحدود ، والحقيقة المطلقة التي يكنها ملكوت السموات والأرض في عالم لا حدود له .. هكذا يخلط بين هاتين الحقيقتين كما حدث لمؤسس (البابية) الذي وقع في مثل هذا الخبط ، فخرج به عن الجادة إلى أحقر صور الكفر .

وإنما يجب أن نقول : إن هذه التجربة ، مهما تكن قيمتها الروحية من ناحية

أخرى ، فهي تخص مجالاً تقاس وقائعه غالباً بالمقياس الأخلاقي ، وأحياناً حتى بالمقياس الجمالي كما حدث ، على سبيل المثال ، فيما يخص عمر الخيام الذي يعده بعضهم من شعراء التصوف وبعضهم الآخر يعده من شعراء الغزل والخمريات .

ومهما يكن من الأمر ، فالتصوف يعد الميدان الذي تقدر فيه الأشياء في نوعيتها وخصوصيتها ، كل شيء بميزته ، وكل شخصية متصوفة بما يميزها ، بينما يأتي (ألدوس هكسلي) ، فيحاول ضم هذه النوعية في إطار وحدة شاملة ، ووضع هذه الأشياء والشخصيات المختلفة تحت قانون عام ، في نطاق منهج شامل يحيط بروح التصوف لا بتفاصيله ، أي يحيط به بوصفه ظاهرة خاصة بالفكر الإنساني .

وهو يصل إلى هذه النتيجة لأن اطلاعه المتسع يتيح له استخدام معطيات كل الثقافات الدينية فيوازن بعضها ببعض ، ليصل بعد مقابلة النصوص المختلفة ، إلى حقيقة علمية تعطي التصوف صورة المنهج الموحد ، المتشابه الأطراف ، المتماسك الأجزاء ، المتقارب المصطلحات في مختلف الأديان واللغات على الرغم من هذا الاختلاف ، حتى إننا نجد في التصوف ما يوحد تصوراته واتجاهاته في كل العصور وفي كل البلاد ، ويتخذ بذلك في نظرنا السمة التي يطلق عليها ألدوس هكسلي (الفلسفة الخالدة) .

لا شك أن موقف المفكر الإنجليزي لا يخلو هنا من بعض الغرابة ، ولكن محاولته تذهب إلى أبعد مما يبدو فيها من مجرد غرابة ، أو كأنها تتعداها لتأخذ مكانها في محاولة أوسع نطاقاً ، هي محاولة التوفيق والتوحيد التي توجه العالم اليوم بصورة غامضة ، وسواء عن شعور ، أو غير شعور ، إلى توحيد مصيره في كل المجالات . فالتصوف يأخذ مكانه ، في ضوء هذه الدراسة ، في أحد هذه المجالات .

فمحاولة (هكسلي) تأخذ هكذا مكانها في هذا الاتجاه العام مع محاولات

أخرى كالتي يقوم بها (رونيه جينون) ومدرسته في الموضوع نفسه ، ومع مـا ينشر من حين إلى آخر ككتاب (وحدة الأديان من الناحية الميتافيزيقيـة) الـذي يعبر بمجرد عنوانه عن أهميته بالنسبة لموضوعنا .

فليس إذن من اللغـو أن نتسـاءل عن مكان التصوف الإسـلامي عنـد هـذا المؤلف الإنجليزي : إذ لا نجده قـد أعطى الفكرة الصوفيـة الإسلاميـة حقهـا مع أن كتابه القيم كان يهدف إلى ضم رحاب الموضوع كله بين دفتيه .

إنه لا شك يـذكر الغزالي وجلال الـدين الرومي مرة أو مرتين . ولكن هـذه القلة نفسها تدل على نقص في الكتاب إذا ماقدرنـا الأشيـاء بـالنسبـة إلى خصوبـة الموضوع ، أي بالنسبة إلى مجال ثقافة دينية ـ كالثقافة الإسلامية ـ يتضمن بجـانب تصوف تاريخي يُرى بأسماء لامعة ، تصوفاً حياً أو معاصراً ، تبدو آثـاره حتى وراء ملامح مؤدب الكتاتيب البسيطة بالأرياف الجزائرية ، في صور جميلـة تـدل على أن الحيـاة الإسـلاميــة مـا زالت على الرغم من الفقر الروحي المنتشر في العـالم ، مازالت توقظ رسالات صوفية تستحق الإعجاب ، وتمدهـا من الإشعـاع الروحي بما يناسب حاجاتها والتزاماتها ...

وإننا لواثقون ـ لو أن هذا الموضوع أغرى بعض المثقفين السـائحين في سبيل الله ـ أنه يستطيع في هذا السبيل جمع ما يكفيه من الآثار لتـأليف كتـاب جميل ، وربمـا خـامرت هـذه الفكرة عقل كاتب مراكشي من فـاس أعطـانـا صوراً رائعـة انتقاها من حيـاة الشـارع والسوق والمسجـد ، وصبهـا بـأسلوب قصصي لطيف في كتاب استحق عنوانه (عقد العنبر) .

إننا لا نستغرب إذا لم نجد هذا الجانب من التصوف الإسلامي الـذي يمكن أن نسميه الجانب الشعبي ، في كتـاب مثل كتـاب (هكسلي) الـذي يمتـاز بـالطـابع العلمي .

ولكن كنا نود لو وجدنا فيه بعض ما يستحق الـذكر من التصوف الإسلامي التـاريخي .. ، أي الفكرة الصوفيـة الإسلاميـة التي سجلهـا التـاريـخ في الحركـة الصوفية العالمية .

ولكن إذا كان هـذا النقص في الكتـاب ممـا يؤسف لـه ، فيجب مع ذلـك ألا ننسى أنـه أيضـاً من نـاحيـة أخرى يعبر عن عجز الطبقـة المثقفـة المسلمـة ، التي لم تقم ، باستثناء محمد إقبال ، بتبليغ القيم الإسلامية إلى لغـات الثقـافـة العصريـة في العالم ، فضاعت عليها الفرصة لتسهم في التراث الروحي العالمي في زمننا .

وهذا العجز يعبر عن هذا الزهد ـ الذي أشرنـا إليـه في مكان آخر[١] ـ الـذي يتصف به العالم الإسلامي في التعريف بنفسه .. حتى إننـا نحيي الترجمـة الفرنسيـة التي نشرت تحت إشراف هيئة (اليونسكو) لرسالة الغزالي (أيها الولد) ، نحييهـا بصفتها مبادرة تأتي في أوانها لتسد فراغاً في محاولة التوحيـد والتوفيق الروحي التي تجري تفاصيلها تحت عيوننا في هذا العصر .. خاصـة إذا لاحظنـا أن المقـدمـة التي وضعت لهذه الرسالة تعطي للشباب المسلم ـ المثقف بالثقافة الغربيـة ـ بـالإضـافـة إلى ماتعطيه من المعلومـات عن وجـه هو أكثر وجوه المـاضي جـاذبيـة في تـاريخ الإسلام ، وإلى ماتمنحه من فرصة ليعيش بعض اللحظات الممتعة ، في حضرة هذا الوجه المشرق بأنوار الروح الإسلامي ، فإنها تعطيه ملخصاً مهماً عن تاريخ الفكرة الصوفية في الإسلام .

☆ ☆ ☆

---

(١) كتاب (وجهة العالم الإسلامي) .

مسارد كتاب (في مهب المعركة)

١ ـ مسرد الآيات القرآنية

٢ ـ مسرد الأعلام

ويشمل الأشخاص والدول والأمكنة[1]

---

(١) ح = حاشية

٣ ـ مسرد الشعوب والجماعات والمذاهب

٤ ـ مسرد المعاهدات والمؤتمرات والاتفاقيات

٥ ـ مسرد المراجع والمصادر[1]

(١) الرموز : ك : كتاب ، ج : مجلة ، ص : صحيفة أو جريدة ، م : مقالة ، ق : قصة ، ك ـ م (من كتب مالك) ، ح : حاشية .

٦ ـ مسرد الموضوعات

لموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث ـ في الحقل الاجتماعي



مالك بن نبيّ

ولد عام ١٩٠٥ في مدينة قسنطينة في الجزائر .

انتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس حيث تخرج عام ١٩٣٥ مهندساً كهربائياً .

اتجه منذ نشأته نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به . وقد أعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتبارها قضية حضارة أولاً وقبل كل شيء . فوضع كتبه جميعها تحت عنوان (مشكلات الحضارة) .

في باريس أصدر بالفرنسية : الظاهرة القرآنية ، لبيك ، شروط النهضة ، وجهة العالم الإسلامي ، الفكرة الأفريقية الآسيوية ؛ بمناسبة انعقاد مؤتمر باندونج .

في عام ١٩٥٦ لجأ إلى القاهرة وقد طبعت له وزارة الإعلام في القاهرة بالفرنسية كتابه (الفكرة الأفريقية الآسيوية) .

اتجه في القاهرة بعد اتصاله بالعديد من الطلاب إلى ترجمة كتبه إلى العربية ، ثم أصدر بقية كتبه بالعربية بعد ترجمة بعضها وكتابة بعضها الآخر بالعربية مباشرة .

انتقل إلى الجزائر عام ١٩٦٣ حيث عين مديراً عاماً للتعليم العالي ، وأصدر في الجزائر : آفاق جزائرية ، يوميات شاهد للقرن ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، المسلم في عالم الاقتصاد .

في عام ١٩٦٧ استقال من منصبه وتفرغ للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية .

توفي في ١٩٧٣/١٠/٣١ في الجزائر .

